أبو العيد دودو

الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان

(1830 - 1855)

أبو العيد دودو

الجزائر في مؤلفات الرحالين الالمان

(1830 - 1855)

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

رقم النشر 75 / 435
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ©
الجزائر 1975

مقدمـــــة

عند ما نذكر الجزائر ، ويروق لنا أن نتحدث عنها لمناسبة ما ، تتبادر الى أذهاننا لاول وهلة كلمات مختلفة ، تكاد لتوهجها أن تكون مترادفات لها . فهي تعني الثورة والتضحية ، الجهاد والنضال ، التضامن والاخوة ، الحرية والكرامة وبالتالي الفكر والاشعاع . واذا اقتصر مدلول بعض هذه الالفاظ على عصرنا الحاضر ، فان لبعضها الآخر جذورا تاريخية عميقة ، امتدت عبر عصور متتالية وخصها التاريخ بصفحات رائعة ، لا تزال للأسف الشديد تمثل حلقات مفقودة في تاريخ الجزائر وثورتها الحديثة .

والظروف الراهنة ، التي نحاول فيها اعادة بناء شخصيتنا الوطنية ، تفرض علينا أن نهتم بمعرفة تاريخ الثورات والبطولات التي عرفتها أرضنا المجيدة . فمن المؤكد أن هذه المعرفة تساعدنا على الاعتزاز بماضينا ، والحفاظ على خصائصنا المتوارثة ، والتمسك بكل ما يمثل أمجادنا خلال عصور وعصور ، كما أن من شأنها أن تكون وقاية لنا من الانسلاخ والعبودية الفكرية والتبعية الحضارية . ولكن التاريخ لا يكتب نفسه بنفسه ، فهو انطواء وموت بطىء وظلام . فلا بد اذن من احيائه واعادة كتابته بطرق علمية سليمة ، لا فرق في هذا بين الماضي القريب والبعيد ، وذلك قبل أن يفني حاملوه من رجال وكتب ووثائق . وهذا ما تفعله الشعوب التي تحرص كل الحرص على أن يضل ماضيها حيا ناطقا بمفاخرها ومآثرها ، لتبني على أساسه حاضرها ومستقبلها، وتطور على ضوئه ثقافتها وشخصيتها .

والتاريخ عندها في تجدد مستمر وبعث متواصل ، فما هو الا ضميرها الوطني ووجدانها القومي وايمانها بذاتيتها ، بل هو جزء من معتقداتها . ومن ثم يجد الباحث من أبنائها ، حين يتصدى للكتابة عنها ، مصادر متنوعة تعالج دورا من أدوارها التاريخية ، تتطلب منه دراستها والاحاطة بجزئياتها مجهودا

كبيرا . وقد يختلف مع هذا المؤرخ أو ذاك في النتائج التي توصل اليها ، الا أنه لا يخامره الشك أبدا في ان مواطنه قد وضع كتابه بدافع من ضميره الوطني والى هذا الحد يمكننا أن نتساءل كيف يتسنى لنا أن نعيد كتابة تاريخنا والحال أننا قلما نعثر على مصادر وطنية من نوع ما نجده لدى الشعوب الاخرى ؟ كيف يمكننا ذلك ونحن نعلم سلفا أن تاريخنا قد كتبه مؤلفون أجانب ، كانت غايتهم في اغلب الاحيان ، الدس والتشويه ، لان مصالحهم اقتضت دائما قطع كل صلة تربطنا بماضي أجدادنا ؟

لست أول من يطرح هذا السؤال كما أنني لست مؤرخا يتيح له اطلاعه الواسع ، وتجاربه المتنوعة في هذا الميدان ، أن يجيب عنه اجابة مرضية . وبالرغم من هذا فاني أعتقد أن من واجب كل من يتقن لغة أجنبية أن يشارك في اعادة كتابة تاريخ بلاده بغض النظر عن ميدان اختصاصه . ومشاركته هذه تتم في نظري عن طريق عرض النصوص المكتوبة بهذه اللغة أو تلك وتقديمها للمؤرخ المتخصص لتقويمها وربطها بقرائنها التاريخية ثم مقارنتها بغيرها من النصوص لمعرفة مدى صحتها وموافقتها للوقائع التاريخية ، وذلك بطبيعة الحال فيما اذا تعذرت ترجمتها كاملة لصعوبة استعارتها لمدة طويلة اولاي سبب آخر . وغني عن القول أن هذه النصوص المكتوبة بلغات أجنبية مختلفة ، زيادة على احتوائها على تجارب خاصة بكل مؤلف من مؤلفيها، يشكل بعضها قسما من التراث الوطني لا تزال أصوله العربية مجهولة غير معروفة لنا

والفضل في وجود نصوص من هذا النوع يرجع الى ان الجزائر قد عرفت في القرون الاخيرة ، في نهاية العهد التركي وابان الاحتلال على الخصوص ، عددا غير قليل من الاسرى والعبيد ، كانوا ينتمون الى معظم شعوب أروبا ، وزارها كذلك بعض الرحالين والكتاب والعلماء والشعراء . وبعد أن رجع هؤلاء واولئك الى بلدانهم أصدروا كتبا على شكل رحلات أو بصورة رسائل أو مذكرات ، تحدثوا فيها عن تجاربهم الشخصية في الجزائر وعلاقاتهم بأهلها ، وعبروا عن موقفهم من قضاياها الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية والخلقية ، كما تطرقوا الى وصف العادات والتقاليد وأساليب الحياة في المدن والقرى والارياف . ومن هنا نجد العديد من هذه الكتب في مكتبات أروبا ، تختلف قيمتها بين كتاب وآخر .

1971 — 9 — 19

الفصـــــل الاول

الجزائــر في مؤلفات الرحالين الالمان (1830 ــ 1855)

ساقصر حديثي فيما يلي على قسم ضئيل منها ممــا يوجـد في مكتبه جامعة فيينا باللغة الالمانية من وضع الرحالين الالمان او الذين اقاموا منهـم مدة في الجزائر لظروف خاصة ، وذلك دون الاهتمام بما ترجم اليها من لغات اخرى ، كاللغات الشمالية مثلا ، والاكتفاء بالاشارة اليها في خلال العرض ان دعت الحاجة الى هذا . وليس من الممكن طبعا تفصيل الحديث في هذه الكتب ، وانما سنتعرض لاهم ما ورد فيها ، فلعل فيه ما يساهم في تحديد ملامح الشخصية الوطنية من خلال ما كتبه هؤلاء الالمان في الفترة المحددة ، ويلقى قليلا من الضوء على الظروف التي كانت تعيشها الجزائر آنذاك ، ويمكننا من الاطلاع على حقيقة الصراع الذي عرفه اجدادنا في مختلف الميادين ، ويهدينا في النهاية الى افكار وآراء تختلف عما تعودنا قراءته في الدراسات والنصوص التي كانت تستهدف تجريد شعبنا من كل ما له من مميزات وسمات عريقــة .

مــــلاحظـــــات عامــة :

قبل أن نبدأ بعرض البعض مما ورد في هذه المؤلفات يجدر بنا أن نلاحظ أن الرحالة الالمان لم يضعوا كتبهم عن الجزائر حبابها ، ودفاعا عن حقوقها ، وانما وضعوا اكثرها ، ولا سيما في الفترة الاولى ، لتكون دليلا لمن اراد من مواطنيهم الهجرة الى الجزائر لانشاء المستعمرات والاقامة بها اقامة دائمة تحت ظل الاحتلال الاجنبي وحماية حكومته ! ولا يمكننا بطبيعة الحال أن ننتظر منهم غير هذا الذي فعلوه . فقد كانت مصالح مواطنيهم مرتبطة بمصالح الغزاة

سواء بحكم رغبتهم في الانضمام الى الفرقة الاجنبية او بحكم نية الهجرة الى المستعمرة الجديدة الرائعة ، كما وصفها احدهم . هذا بالاضافة الى انها كانت اقرب اليهم من أمريكا او البرازيل وغيرها من دول العالم الجديد التي كانوا يهاجرون اليها سابقا . ثم انهم كانوا على الاغلب يشاركون المحتلين في عواطف الحقد على الدولة الجزائرية السابقة ويرغبون رغبة كاملة في الانتقام ، تحت ستار الدين والتضامن الاروبي ، من اولئك الذين كانوا يكونون نواة تلك الدولة او اصبحوا يجسدون القوة الفتية التي وقفت في وجه الغزاة واخذت تقاومهم من خلف الاسوار والهضاب والمرتفعات .

ينبغي اذن الا نعجب حين نعثر ، ونحن نقبل على قراءة مثل هذه المؤلفات ، على كثير من الآراء المتطرفة ، والافكار الخاطئة التي هي مجرد صدى لما كان يدين به ذلك العصر من رغبة في السيطرة والتحكم ، وشغف بالسلب والنهب والعدوان ، وحب للمال وتكالب على خيرات الغير وأرضه وضياعه وممتلكاته وحصونه . ولسنا في حاجة الى ذكر هذه الآراء والتعقيب عليها ما دامت لا تضيف جديدا الى ما سبق أن عرفناه في مؤلفات اخرى . وانما نكتفي بما يخدم غرضنا ويكشف عن بعض جرائم الدخيل وفظائعه او يزيدها ايضاحا او يتخذ منها موقفا انسانيا صريحا . ولكن هذا لا يعني أن علينا ان ناخذ كل ما سيرد في خلال هذا العرض أو في النصوص المترجمة على انه قضية مسلمة ، وانما ينبغي ان نضع في اذهاننا دائما ان المؤلف ، أي مؤلف كان ، عرضة للخطاء في المعلومات التي يقدمها ، فقد يعود مثل هذا الخطا الى عدم معرفته للغتنا الوطنية وقلة اطلاعه على الاحداث القومية اطلاعا مباشرا او لتسرعه في الحكم دون تحري الحقائق التاريخية او لتعلقه بوجهة نظر معينة . فالمؤرخ الجزائري حر بعد ذلك في أن يرفضه ان يقبله ويتبناه بعد مناقشته مناقشة علمية رزينة .

اهتمام الالمان بالجزائر :

لقد اهتم الالمان في بداية الامر بترجمة ما كتبه المؤلفون الاجانب عن الجزائر فنقلوا الى لغتهم كتاب الرحالة الانجليزي توماس شو « رحلة في ولاية الجزائر » سنة 1765 ، وكتاب الشاعر الايطالي فيليو بنانتي « رحلة الى

سواحل البرابرة » عام 1824 . وبعد احتلال الجزائر بمدة قصيرة نشرت مجلة الكتب السنوية في عدد سبتمبر سنة 1830 دراسة مطولة ، استقت الكثير من معلوماتها عن الجزائر من المجلة الايطالية للعلوم والآداب والفنون وأضافت الى ذلك شيئا مما عثرت عليه في مراجع ومصادر أخرى ، واستعانت ايضا بكل من شو ، وبنانتي ، وبيير دان ، الذي صدر كتابة عن الجزائر في باريس عام1649.وقد تحدث مؤلف هذه الدراسة عن ولايات الجزائر ومدنها وموانئها وجبالها ووهادها وانهارها وبحيراتها وجوها ومناخها وخصوبة أراضيها ومنتجاتها الزراعية ، واشار الى أهم المدن وقدم خصلاة لتاريخها ، وخاصة القل وبجاية وعنابة وجيجل وقسنطينة والجزائر ، ويذكر ان بالجزائر عشرة مساجد كبيرة وحوالي خمسين مسجدا صغيرا وخمس مدارس وعددا كبيرا من مدارس الكتاب . ولعل أهم ما ورد في هذه الدراسة هو الحديث عن مسألة العبيد التي اتخذتها أوروبا ذريعة للاعتداء المتكرر على السواحل الجزائرية والاشارة الى أن هؤلاء العبيد كانوا قد اصبحوا ملكا للدولة الجزائرية قبل خمسين سنة ، وانه من الانصاف الاعتراف بان أوضاع الاسرى في الجزائر كانت افضل بكثير من أوضاع أمثالهم في البلدان المسيحية . ذلك أن العبودية في البلدان الاسلامية عبودية منزلية ، يكره عليها العبد ومن ثم يشق عليه احتمالها . وقد تقلد كثير من عبيد الجزائر وظائف سامية ، جلبت لهم الخير والنفع والثراء . وهناك من صعب عليه أن يترك الجزائر ويتخلى عن ارضها وسمائها ، ولما غادرها وعاد الى بلاد اوروبا المتمدنة امتلأ قلبه حسرة عليها وعلى النعيم الذي عرفه فيها كعبد اجنبي ، اذ كانت مصدر سعادة وهناء بالنسبة له . ويتحدث المؤلف عن امراة سويدية عاشت في الجزائر مكرمة مبجلة ، انتقلت الى استامبول قبل الاحتلال بمدة قليلة . ويبدو أنها قد تحدثت مع بعض الاروبيين عن اوضاع العبيد في الجزائر .

وتذكر المجلة في نهاية دراستها ان الجزائريين لا ينقصهم الذكاء ولا المواهب ولا القدرة على التطور ، ولكن الاضطهاد التركي هو الذي تركهم على هذه الحالة التي هم فيها ! وقد بدأ اتصالهم باروبا قبل نصف قرن ، اذ سافر اليها كثير منهم ، وزاروا بعض بلدانها وحصلوا على معارف متنوعة ، أدت الى ظهور مواهبهم المختلفة بصورة أوضح !

الفصل الثاني

فيلهلم شيمبر

(1878 – 1804)

يجدر بنا أن نعرف اولا شيئا من حياة الرحالة والعالم فيلهلم شيمبر ، فهو جدير بذلك . وسيدرك القارىء من خلال أفكاره وكلماته مدى انسانيته وطيبته وموضوعيته . وشخصية شيمبر عجيبة حقا ، وهو اخو العالم النباتي المشهور كارل فريدريش ، وكان لفيلهم المام كبير بعلم النبات ، ولكنه قصر مع ذلك عن الوصول الى الدرجة التي وصل اليها أخوه بمراحل ، فتفرغ لجمع النباتات . وقام برحلات في جنوب فرنسا والجزائر ومصر والجزيرة العربية لهذا الغرض وكان قد كلف بها من طرف الجمعية النباتية . ولنجاحه في مهمته ارسل ايضا الى بلاد الحبشة ، فاحسن اليه ملك « تيغره » وسهل له القيام بمهمته مدة ثلاث سنوات ، اراد بعدها العودة الى اوروبا ، غير أنه مرض في الطريق فحملته قافلة الى مكة . ومنها عاد الى الحبشة واستقر بها ، حيث عينه صديقه الملك واليا على منطقة « انتيتشو » وتزوج بحبشية . وعاش بها عيشة هادئة دون ان يصرفه ذلك عن مهمته الاساسية ، ولما قامت الحرب بين ولي نعمته الملك « اوبيه » وغريمه الملك « تيودور » سنة 1855 ، اعتقل من طرف هذا الاخير في قلعة « ماغدالا » ، ولم يتم اطلاق سراحه الا بعد تسليمه الى الانجليز عام 1868 ، فاقام في « آدوا » الى ان ادركته الوفاة .

زار شيمبر الجزائر في شهر ديسمبر سنة 1831 ، اي بعد مرور حوالي عشرة اشهر على احتلالها من طرف الفرنسيين واقام بها حوالي عشرة اشهر ولما عاد الى بلاده ، بعد ان اصابته الحمى المتقطعة وافقدته ذاكرته لفترة

قصيرة ، أصدر كتابا صغير الحجم بعنوان « رحلة فيلهلم شيمبر الى الجزائر في سنتي 1831 و 1832 » ، تم طبعه في مدينة شتوتغارت عام 1834 . وعندما وصل الى ميناء الجزائر كان اول ما لاحظه وابتهج لرؤيته هو الاخوة التي تجلت في سلوك الحمالين مع بعضهم البعض . فقد تقدم منه جمع منهم ، ولما اختار حمالين ، قدم لهما الآخرون أدوات الحمل من حبال وعصي وابتعدوا بكل هدوء . فحمله هذا السلوك على أن يقارن بينهم وبين الحمالين في اروبا ويقول عنهم ان لهم عكس ما للجزائريين من خلال حميدة ويصفهم بالقحة والغدر والكسل (ص 18) .

ويتحدث بعد ذلك عن مدينة الجزائر فيرى أنها قد دعيت هكذا بسبب الفياضانات التي تغمر سهل متيجة في الشتاء وتحيله الى بحيرة كبيرة ! ويقدر عدد بناياتها بخمسة عشر الف وسكانها بمائة الف نسمة ، كما يذكر اللغات المستعملة بها وهي العربية والاسبانية والفرنسية والايطالية والالمانية والانجليزية والهولاندية وغيرها مما لم يعرف له أصلا ولا نسبا .

وبعد ان يذكر الحضر ، وهم في رايه اهم عنصر في المدينة ، ويتراوح عددهم بين الثلاثين والاربعين الف ، ينتقل الى الحديث عن الاسرة والسعادة التي تسود حياتها المنزلية فيقول : ((**وقد أتيح لي أن أراقب أسرة كانت تسكن بجواري . فحين يعود الرجل الى البيت تستقبله الزوجة معانقة أياه مقبلة ، وتجلسه قربها فوق الاريكة وتحدثه ويحدثها . ويسرع الاطفال كذلك الى أبيهم فرحين ، فيضمهم الى صدره في حنان وحب وياخذ في مداعبتهم .**)) (ص 33) . وقد تعرف على جارته ، وهي عجوز اسبانية يصفها بالقبح ، فأرسلها الى بيت الجيران لتصف له داخل البيت وحياة الاسرة واعمالها المنزلية . فذهبت لزيارة جارتها على الساعة الواحدة بعد الظهر ، وكتبت له تقريرا بتاريخ 24 يناير 1832 ، أوضحت له فيه كيف دقت الباب فسمعت صوتا يقول :

« اشكون ؟ » فردت هي « مرا » ، ولما فتحت لها الباب دخلت عليها قائلة : « واش حالك ؟ كيف انت ؟ صباح الخير ؟ » .

وحملت له حروزا استعارها منها لترجمة ما فيها الى الالمانية . ويخلص

بعد هذا الى القول « **ان المرأة تعيش كالسجينة تقريبا ، وليس مرد ذلك الى غيرة زوجها ، وانما مرده الى العادة المتبعة . فالرجل الجزائري ليس غيورا جدا ، بل هو في غيرته لا يختلف عن أي انسان ينتمي الى شعب آخر . وان هو وجد رجلا في بيته ، فان تصرفه في هذه الحالة لن يختلف عن تصرف رجل الماني مثلا !** » (ص 33 — 46) .

ويتطرق شيمبر الى الحديث عن التربية والتعليم فيذكر أن الاطفـــال يذهبون الى المدارس ، وهي موجودة بكثرة ، في السادسة من العمر ، يتعلمون فيهـــا القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن ، ثم يواصلون تعليمهم عند العلماء والفقهاء . ويسافر الكثير منهم فيما بعد الى تونس والاسكندرية والقاهرة امـــا لاتمام دراستهم أو لتعلم الحرف وفنون التجارة . كما يذهب البعض منهم الى « ليفور نـــو » لدراسة الطب واكتساب المعارف الاروبية في مختلف الميادين . والى جانب هذا هناك من سافر منهم سابقا الى فرنسا وانجلترا . وينوه المؤلف بشاب جزائري عرفه عن قرب ، ويقول عنه دون ان يذكر اسمه انـــه طاف باروبا كلها تقريبا وعرف أحوالها وتقاليدها معرفة جيدة ، وشاهد مسارحها وآثارها في كل مكان اتيحت له رؤيته ، كما زار عددا من البلدان الافريقية وانهى رحلاته بالحج الى مكة . وكان يتكلم الى جانب العربيـــة الانجليزية والفرنسية والاسبانية والايطالية واليونانية . ثم يؤكد المؤلف أن الحضر على العموم يقومون بسفرات كثيرة ويجوبون الاقطار المختلفة ويعودون بعد ذلك الى وطنهم مزودين بمعارف عدة .. لكنهم لا يحاولون اتقان اي شيء ولا يتعلمون أي لغة قديمة !

وبعد ذلك يقرر شيمبر ما يلي : « **لقد بحثت قصدا عن عربي واحـــد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة ، غير أني لم أعثر عليه في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أروبا ، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب . ومن الانصاف أن نقول أن الجزائريين يتكلمون الفرنسية بطلاقة ، وذلك ما دعا الحكومة الفرنسية الى استخدامهم في الوظائـــف العمومية أما الفرنسيون الذين يتكلمون العربية فلا وجود لهم الا في النادر جـــدا !** » (ص 52 — 53) .

ويقول المؤلف ان الحضر ملمون بالعلوم ، ولكنهم لا يهتمون بها ، فاذا حفظ أحدهم القرآن وتعلم الكتابة واصبح في مقدوره أن يفسر القرآن فانه يعد عالما كبيرا . اما اذا أدى فريضة الحج فانه في هذه الحالة يعتبر نفسه مرابطا ، يتسم سلوكه بالانعزال والانصراف عن الدنيا ، وله من يقوم على خدمته ، الا انه في كثير من الاحيان يؤدي بنفسه كثيرا من الاعمال المختلفة . (ص57)

ويتحدث المؤلف عن الحمامات في الجزائر وعن الدور الذي ينسبه اليها الحضر في معالجة الكثير من الامراض أو الحيلولة دون وقوعها ، ويتحدث عن طريقة من طرق العلاج التي شاهدها في الحمام ويصفها على الصورة التالية :

« دخل الى الحمام شاب انتفخت لوزتاه عند فكه الاسفل ، واستحم ثم اتجه الى رجل كبير السن كان جالسا في الرواق . ومع انه لم يكن طبيبا فقد اضطجع الشاب أمامه ، فوضع يديه فوق لوزتيه وضغط عليهما بشدة رافعا اياه عن الارض لمدة طويلة ، ثم اعاده ألى مكانه ، وقد اعوج وجه الشاب الذي فتح عينيه برهة ثم اغمضهما وقد بدا عليه أنه فقد وعيه تماما ! وعندما استيقظ ثانية ونظر حوله مستغربا . . كرر الشيخ العملية معه مرة ثانية وثالثة الى أن غاب الشاب عما حوله مدة طويلة ، وبالتالي فتح عينيه وتنفس بقوة واستحم من جديد ، ثم غادر الحمام وقد شفي من مرضه ! » (ص 80)

ويؤكد شيمبر ما قاله بفايفر قبله من أن الطب يكاد يكون غير معروف في الجزائر ، فلا يوجد في المدينة على كبرها سوى طبيب عربي واحد وهو صيدلي في الوقت نفسه ويصف هذا الطبيب بالجهل والكسل ، فعلى الرغم من أنه درس الطب في مدينة « ليفورنو » لمدة لم يستطع تحديدها ، فانه لم يكن يعرف كلمة ايطالية واحدة ولا اسبانية ، بل انه لم يكن يعرف حتى اللغة الفرنجية التي يتكلمها كل انسان في الجزائر ! ويضيف قائلا : **« ومع ذلك فاني أشكر هذا الطبيب على ملاحظة قيمة : فبما أنني لم أر كلبا مسعورا في الجزائر وأن السكان هناك لا يعرفون ذلك أصلا ، فقد سالته عن رأيه في مسالة وجود سعر الكلاب في أروبا فقال ان سببه يعود الى قتل انثى الكلب ، وليس من العادة في الجزائر قتل الكلبة ! »** واسعد أوقات هذا الطبيب هي تلك اللحظات التي لا يطلب منه فيها القيام بعمل ما ! (ص 82)

ويتحدث المؤلف عن العميان ويأخذ على الاروبين انهم يعاملونهم معاملة في منتهى القسوة وانه لم ير ، خلال العشرة اشهر التي قضاها في الجزائر ، أروبا واحدا يقدم لهم اية مساعدة . وعلى العكس من هذا كان موقف المواطنين منهم فقد رآهم يشفقون عليهم ويساعدونهم ما وجدوا الى ذلك سبيلا ، وقد كانت الشحاذة مقصورة عليهم ، أما الاصحاء فكان من العار عليهم في نظر الجميع أن يمدوا أيديهم تسولا ! (ص 83)

وكما اشار غيره الى كثرة المقاهي كذلك يشير اليها المؤلف ويقول انه كان يرى المواطنين جالسين فيها في الساعة الثالثة صباحا ! ولا تخلو منهم اليوم كله ، يبقون فيها مدة طويلة يدخنون ويشربون القهوة . غير انه لا يعتبر جلوسهم هذا دليلا على الكسل والخمول ، وينكر على كل من يحكم عليهم بذلك معرفته بأوضاع الجزائر . فالداعي الى الجلوس في المقاهي تحتمه ، في نظره ، المعاملات الفردية في اغلب الاحيان . بالاضافة الى ان المسلك الهادىء ضروري الى حد ما في هذه البلاد ، والهدوء والنشاط يتبع احدهما الآخر ، كما يقول ، اما الخمول فانه لم يتسلط بعد على طبيعة الجزائريين ! (ص 84)

ويذكر مقهى كبيرا بالجزائر ، يجتمع فيه العرب في الثامنة ليلا ، ليستمعوا الى موسيقى واغان عربية . وقد تقدم شيمبر من أحد الموسيقيين وطلب منه أن يكتب له الاغنية التي استمع اليها ، فكتب له مقاطع منها ترجمها الى اللغة الالمانية ، وهي :

عندما دققت الباب
رن نائحا صوت الناقوس .
قلت : اين أحبابنا ، يادار ؟
فخف الي طير من السماء
وهمس في حزن اليم :
اتسال عن احبابك ؟
لقد ذهبوا . . فلم الحزن ؟
الست في بلاد فيها يعيش
اهلي واحبابي ؟

كلا . أنا في بلاد تمزق فيهـــا
قلبي والتهب كالحطـــب .
لا تكتب اليهم ، ايها الكاتب ،
فالفراق بيني وبينهم .
اذا بقيتم بعيدا عني ، يا أحبابي ،
فسوف أقسو عليكم في كتاباتي ،
ساسحق الرمـــل والصوان بين اسناني ،
ساكوم البحر فنجانا صغيرا اضعه
فوق راسي ، وادعو الله ان يلطف
قلوبكم الظالمة القاسية .
كيف جرؤت ان تنشرنورك ،
يا يـــوم الفراق !
ها قـــد احترق قلبي المـــا ،
ونديت دخيلتي حـــزنـــا ،
فلماذا أشقيـــت حياتي ؟
آه منه ، آه من يوم الوداع ، يا أحبابي !

ولا شك ان هذه الاغنية تصور حقيقة الحزن الذي امتلأت به النفوس بعد الاحتلال ، حين اضطر كثير من المواطنين الى الهجرة ، كما تجسد غضب من اقام على من ارتحل ! (ص 84 — 85)

ويتعرض المؤلف في كتابه للحركة التجارية في الجزائر ، فيؤكد أنها قـــد وصلت الى حد من التدهور كبير ، لأن الفرنسيين لا يبدون اية رغبة في اقامة علاقات تجارية مع داخل البلاد ، يضاف الى ذلك أن التجارة اصبحت بيـــد الاروبيين ، وان التاجر العربي الصغير مضطر الى اخذ بضائعه منهم وهم على ما هم عليه من طمع وجشع . كما يشير شيمبر الى ان الصناعات اليدوية ليست باحسن حالا من التجارة . . فقد اصبحت في حالة يؤسف لها أشد الاسف . ذلك ان الاغنياء الذين كانوا يشجعون مثل هذه الصناعات قـــد طردوا من جانب الفرنسيين ، ومن لم يطرد منهم فضل ان يغادر وطنه من تلقاء نفسه سخطا على الاوضاع الجديدة ، ورفضا للحياة في ظل نظـــام

اجنبي ! اما الذين لم يستطيعوا ترك البلاد بسبب أوضاعهم المادية ، فقد توقفوا عن العمل لان الاروبيين في غنى عما تنتجه أيديهم . وهؤلاء الاروبيين الذين وصلوا الى الجزائر يكونون مجموعة من الاسافل والاشرار والمجرمين الكبار ، كانوا قد طردوا من بلدانهم لسوء سلوكهم ودعارتهم ، وانهيارهم الخلقي واستهتارهم بكل عرف اجتماعي . وهكذا أصبحوا سببا في الاوضاع المؤلمة التي يعاني منها هذا الشعب المسكين . (ص 93)

ويرى أن الشعب الجزائري لا يختلف عن غيره من الشعوب من حيث اخلاقه وطبائعه ، فالخير والشر يجتمعان فيه جنبا الى جنب مثلما هو الحال في اي مكان آخر . ويكرر مرة اخرى انه يفضلهم على سكان الشاطيء الاروبي للبحر الابيض المتوسط ، لأنهم اكثر تدينا وثقافة منهم ، فهم على الاقل يستطيعون القراءة والكتابة ويحبون النظام والنظافة ويمارسون أعمالهم بجد ونشاط وبصورة منتظمة ، ولا يبدون أي تعصب . ويقدم دليلا على عدم تعصبهم هذا فيقول انهم اعاروه ثيابهم وادخلوه مساجدهم والتفوا حوله ليسلموا عليه ويسالوه عن احواله . . ولكنهم لا يرضون بالتعدي على حرماتهم وتقاليدهم الدينية . حقا ان معاشرتهم لا تخلو في البداية من برود ، الا أن الانسان سرعان ما يكتشف طبيعتهم ولطفهم وأخلاقهم النبيلة وفضائلهم الحميدة ! (ص 97)

وينتقل بعد ذلك الى الحديث عن شجاعة الجزائريين في الحروب وأنواع اسلحتهم ومهارتهم في استخدامها وكيف أن الجبال كانت معاقلهم منذ القديم ، وكيف أتاحت لهم على مر العصور الدفاع عن أنفسهم ، ويشير الى أن هناك عددا من الجواسيس بينهم ، بعضهم يتجسس لصالح الفرنسيين والبعض الآخر لصالح العرب . ويصفهم بالفروسية والصمود ، ويلاحظ ان عيبهم الوحيد هو انهم غير منظمين وان ما بينهم من خلاف وعراك وتطاحن قد جلب على أعدائهم منافع كثيرة ، فعرف جنرالات فرنسا كيف يستفيدون من هذه العيوب والاخطاء فحرصوا على زرع الشقاق بين القبائل ، على الرغم من أن الفرنسيين واليهود يخافونهم اشد الخوف ! (100 — 102)

ولم تقتصر اقامة شيمبر في الجزائر على المناطق التي كان الفرنسيون قد

احتلوها ، وانما تعدتها الى مناطق اخرى . فذكر أنه ذهب لزيارة العرب في قراهم البعيدة ، فاستقبلوه استقبالا حسنا والتفوا حوله ومدوا ايديهم لمصافحته ، وأثنى على كرمهم ثناء كبيرا . ويروي أنه وقع بعد الأكل في موقف حرج ، لأن شيخ القبيلة طلب منه هدية ، والعرب ، كما يقول ، يحبون أن يهدي اليهم شيء ما ، ولكن بما أنه لم يكن لديه ما يمكن الاستغناء عنه ، فقد أخرج كل ما كان لديه من نقود وقدمها لشيخ القبيلة ، فاخذ منها هذا قطعتين صغيرتين واعاد اليه الباقي . وعندئذ عرف شيمبر أنه كان يريد منه شيئا للذكرى لا غير! وتكررت زياراته لهم بعد ذلك ، وكانوا في كل مرة يساعدوه في جمع ما كان يريد جمعه من حيوانات ونباتات وحشرات ، ثم قامت الحرب الثانية فحيل بينه وبين الوصول اليهم . ويتحدث أيضا عن القبائل ويصف أسلوب معيشتهم ويمدح ما لهم من جد ونشاط وانهم يشتغلون في البساتين وحقول الحنطة وأن لدى القنصل ، ولعله يعني القنصل الألماني ، ما يزيد عن ثلاثين عاملا منهم ، ويشيد بعنادهم وشجاعتهم في الحروب وأن الفرنسيين ينظرون اليهم نظرة عـــداء لا تختلف عـــن نظرتهم لبقية الجزائريـــين في جـميع المـــناطق . (ص 113 — 116)

وبعد أن يقدم المؤلف خلاصة لتاريخ الجزائر ، لم يأت فيها بجديد يذكر ، يسجل نصائحه للالمان الذين هاجروا أو يريدون الهجرة الى الجزائر ويحذرهم من الاختلاط بالاشرار فيها ، ويحدد لهم الأماكن التي لا خطر عليهم فيها من طرف العرب ، ويوضح لهم كيفية الحصول على رخص الاستيطان ، كما يتحدث عن الاسعار في الجزائر وارتفاعها الفاحش وعما آل اليه أمر بعض الألمان فيها ، نتيجة لسوء تصرفهم فأصبحوا محتقرين مهانين ! وينصحهم أيضا بعدم الالتحاق بالفرقة الاجنبية ويبين لهم عاقبـــة ذلك ، فهذه الفرقة تقوم بأشد العمليات الحربية خطورة ، ليحمل الفرنسيون بعدها اكليل الغار ! هذا زيادة على احتقارهم لافرادها مع انها هي التي تقوم على حراسة الجزائر .

ويعود المؤلف للحديث عن التجار الفرنسيين فيؤكد من جديد انهم سبب المحن التي حلت بالجزائر ، فهم لا يعرضون بضائعهم في الاسواق الا بعد أن يتحول النقص في المواد الغذائية الى مجاعة ، ثم انهم حريصون على القضاء

على التجار الصغار الشرفاء حتى لا يفقدوا شيئا من تجارتهم ، وانذل هؤلاء التجار هم اليهود المعمدون ! ومن الحقائق التي حرص المؤلف على ذكرها غير مرة أن محلات الأروبين قذرة بصورة تشمئز لها النفس ، في حين أن محلات العرب نظيفة ومنسقة تنسيقا حسنا تكشف عن ذوق رفيع وأصالة تامة على نحو مغر . ويسجل مابين البائع العربي النظيف وجاره الاروبي القذر من فروق مميزة ، ولا ينفي النظافة حتى عن العمال الفنيين ، فهم يولونها اكبر اهتمام . ويقول ان في امكان الاسكافي الاروبي أن يذهب الى الجزائر ليتعلم كيف تصنع الاحذية ! (ص 130 — 140)

ويتاسف المؤلف للمعاملة السيئة التي يتعرض لها السكان الاصليون من طرف الاسافل الا دنياء الذين وصلوا الى الجزائر من جميع انحاء اروبا ووجدوا فيها ملجأ ومقاما ويحمل الولاة المختلفين مسؤولية الاوضاع المحزنة التي تسود المستعمرة ، لأنهم تركوا للجنود المتوحشين حرية التصرف من جهة ولم يحاولوا من جهة أخرى معرفة طبائع الافريقيين كما ينبغي ! ويضرب شيمبر مثلا على وحشية جنود الغزاة فيقول : « **يروى أن قبيلة جزائرية أرسلت وفدا لتقديم ولائها للحكومة الفرنسية ، وبعد أن أهديت لهم برانس حمراء رجعوا من حيث أتوا . وفي طريق عودتهم مروا بقبيلة أخرى تسكن السهل ، وكانت تعيش في نزاع معهم ، فاعترضت سبيلهم وسلبتهم ما كان معهم من هدايا ، ولم يسلم منهم سوى اثنين ، قاما بابلاغ الحادثة الى السلطات الفرنسية . فجهزت هذه بعثة في الليل ، أحاطت بالقبيلة التي كانت تسالم الفرنسيين حتى ذلك الحين ، ودخلت على أفرادها وهم نيام في خيامهم وقتلتهم جميعا رجالا ونساء وأطفالا ، ثم عاد المنتصرون وساروا في المنطقة الفرنسية على أوحش صورة وأشنعها . ذلك أن الجنود كانوا قد قطعوا رؤوس القتلى وشدوها بالحبال فوق اكتافهم . وقد اتضح فيما بعد ، كما قيل ، أن تلك القبيلة كانت بريئة !))**

والمؤلف يعني دون شك قبيلة العوفية ، وهو متاكد من هذه الحادثة وصحتها ، فقد اتصل بعدد من الجنود الذين شاركوا فيها ، فوجد البعض منهم يتحدث عنها باشمئزاز ويشكو من ان السلطات لم تضع حدا لمثل هذه العمليات الاجرامية ، والبعض الآخر يتحدث عنها بفخر واعتزاز . ويستمر المؤلف في روايته قائلا : « **لقد حدثني أحد هؤلاء السفاحين في كبرياء وقال : كان هناك**

طفل واقفا في مؤخرة الخيمة ، فصحت به : أخرج ، يا حقير والا فسوف أطلق رصاصة في فمك ! ولكن البهيمة لم يطعني . وعندما ضغطت على الزناد طار نصف رأسه وتعلق بكتان الخيمة ! » ويعلق المؤلف على رواية الجندي القاتل فيقول في سخرية مرة : « **كان ينبغي للطفل البدوي البريء الفزع أن يطيع أمرا وجه اليه بلغة أجنبية لا يفهمها ! هذه هي أعمال العسكريين الذين يشغلون وظائف في السجون ويجلسون فوق منصات المحاكم !** » (145 — 150)

ويروي المؤلف كذلك أنه كثيرا ما كان يخرج الى مناطق الحراسة ، فيشاهد الفرق الكاملة من الجنود الفرنسيين وبعض الجزائريين المنضمين الى الفرقة الاجنبية يتربصون بالعرب العائدين من الاسواق ليسلبوهم ما معهم من مال ومتاع . وكانوا مجردين من السلاح ، ولكنهم كانوا يسيرون جماعات لهذا الغرض . ويؤكد أن ذلك ليس ظنا منه ، وانما هو يستند الى ما حدثوه به هم أنفسهم .. بالاضافة الى ما وقع له هو ذاته . فبينما كان ذات يوم يحفر الارض لاستخراج بعض النباتات ، تقدم منه جنديان من جنود الفرقة الأجنبية ، وهما يتحدثان باللغة الألمانية عن الطريقة التي يثبان بها عليه ، فلم يهتم بهما الى ان اقتربا منه ، فاستدار بسرعة ووضع مسدسا تحت أنف كل منهما مخاطبا اياهما بالألمانية ، ففاجأهما حديثه بها ولاذا بالفرار . ويذكر أنه كان مرة عائدا من بعض جولاته ، فانضم اليه في أثناء الطريق باريسي ، وعرض عليه أن يقتل له جزائريا نظير خمسة من الفرنكات ! (ص 185)

ويذكر المساجد ايضا فيقول ان أروع مسجد في الجزائر قد هدم ، لتقام مكانه ساحة للاجتماعات ؛ مع أنه كان في الامكان اقامة هذه الساحة قرب مقام الحاكم الفرنسي . كما أصبح كثير من المساجد مخازن للتبن بينما تحول البعض الى بنايات عسكرية ؛ وهناك مسجد اعطي لبعض السادة الحلوين ، على حد تعبيره ، لمزاولة العزف على الكمان ! وهدمت كذلك أضرحة عزيزة على قلوب الجزائريين ليقام مكانها ميدان تتم التدريبات المختلفة . ثم يضيف قائلا : « **ومن هنا يمكننا أن نفهم الأثر الذي تخلفه أعمال الغالبين في نفوس المغلوبين ، بحيث أنه يبدو من الصعب أن يعيش البعض بجانب البعض الآخر** في امن وسلام . ولا يمكن الا ان يثور المرء على مثل هذه الاعمال الفظيعة ،

لأن وثيقة الاستسلام تنص على عدم المساس بممتلكات الجزائريين ومقدساتهم الدينية . » (ص 87 1 — 188)

وبالتالي يقول : « **لعل البعض سيآ خذني على ما أقدمت على ذكره ها هنا ، الا أن مآخذة كهذه أحسن لي من أن أخفي عن الناس شيئا . فقد يكون الحديث عن مثل هذه الفظائع مدعاة الى لفت الانظار اليها والعمـــل على ازالتها . »**
ويكرر في نهاية كتابه دعوته الـــى احترام قوانين الجزائريين ومعتقداتهم ، ليتمكن الاروبيون من كسب ثقتهم والميل اليهم والاتحاد معهم باطنيا !

نلاحظ مما تقدم أن شيمبر قد تحدث عن اوضاع الجزائريين بعد الاحتلال من وجهة انسانية ، وكشف النقاب عن جرائم الغـــزاة ، دون أن يعترض ـــ صراحة على الأقل ـــ على احتلال الجزائر واستعبادها ، وان كان قد حذر ابناء بلاده من الهجرة اليها حتى لا يصبحوا رعايا حكومة أجنبية تمارس مثل هذه الفظائع والجرائم ، ويضطروا للمشاركة فيها بوجه من الوجوه ، فيكسبوا بذلك عداوة شعب لم يسبق له أن أساء اليهم وارتكب ما يحملهم على اذلاله والتنكيل به ، ولم يرض لهم أن يحتقروا مـــن جانبين ، مـــن طرف الغزاة والمواطنين !

الفصل الثالث

فرديناند فينكلمان

وضع فينكلمان بدوره كتيبا عن الجزائر بعنوان « تاريخ احتلال الجزائر من طرف الفرنسيين سنة 1830 » نشره بمدينة ايلمناو عام 1832 . وقد أورد في الصفحات الاولى نبذة عن تاريخ الجزائر قبل الاحتلال بفترة قصيرة ، فاشار الى فشل فرنسا في مفاوضتها مع محمد علي (أواخر 1829) لحمله على الاعتداء على الجزائر ، وخيبة مساعيها في احداث القطيعة بين باي قسنطينة وداي الجزائر ليتم لها النصر بسهولة . كما تحدث عن اتصالها بالشعب الجزائري نفسه عن طريق منشورات وزعتها في الولايات ، تدعوه فيها الى مساعدتها في بلوغ غايتها واهدافها ، دون أن يتم لها ما ارادت رغم الوعود التي بذلتها له (ص 10) .

وبعد ذلك يتحدث المؤلف عن الظروف التي تم فيها الاستيلاء على الجزائر معتمدا في ذلك على ما كتبه بفايفر وغيره . ويبدو أن المؤلف قد سحرته طبيعة الجزائر . . موقعها وهضابها وجبالها ووديانها فلم يهتم بالبلاد كثيرا من الناحية التاريخية . واذا كان شيمبر يحذر الألمان من الهجرة الى الجزائر ، فان فينكلمان على العكس من ذلك ، فهو يلح على مواطنيه في الهجرة اليها ، لأنها مستعمرة رائعة بالنسبة للالمان ! (ص 61) وذلك ما فعله بعده مواطنه ماكس ماريا فراهير فون فيير فيما بعد ، عندما نشر كتابا عام 1854 عن الجزائر والهجرة اليها ، قصر حديثه فيه عن وسائل الهجرة والخطوات التي يجب على المهاجر اتباعها دون أن يتعرض لتاريخ الجزائر مع الاستعمار الفرنسي . وقد تحمس فينكلمان للهجرة الى درجة انه راح يبحث عن ماضي الجزائر في العصر

الروماني لا من حيث تاريخها ، ولكن مـــن حيث منتجاتها الزراعية ومقدار محصولاتها على مدار السنة كلها . فيذكر بناء على ذلك ان الجزائر قد اشتهرت قديما بخصوبة أراضيها ويروي ما قاله عنها بعض الجغرافيين القدامى من أنها تنتج القمح مرتين في السنة ، مرة في الربيع ومرة في الصيف . ويضيف الى هذا أن بعض الأهالي قد ذكر له ان الأرض لا تزرع مرة اخرى بعد حصاد الربيع ، وانما يكتفي الفلاح بقلب تربة حقول الحنطة ، فتنتج الحبوب ، التي سقطت في الحصاد الأول ، غلة كبيرة في الصيف ! (ص 78)

وزيادة في التشويق الى رؤية الجزائر والاقامة بها يؤكد المؤلف لمواطنيه ان هناك مناطق خصبة اهملت الاهمال كله مثل مناطق عنابة وقسنطينة والجزائر نفسها ، وكأنه يقول لهم بهذا انها في انتظاركم ! ويزعم أن الجزائريين يجهلون تمام الجهل كل ما يتعلق بالاعمال اليدوية والصناعات الفنية . وقد حملته العقلية الاستعمارية على المقارنة بين امريكا الشمالية والبرازيل وبين الجزائر ، فالمهاجر الألماني في هذين البلدين يجد نفسه بين اهلها الذين هم سادة البلاد فينظرون اليه على أنه دخيل يريد ان ياخذ منهم لقمة العيش ، ثم ان الهيئة التي يقبل بها المهاجر تنفر المواطن الامريكي منه ، ومن ثم كثيرا ما تتحول العلاقة بين الجانبين الى صراع . اما في الجزائر فان المواطنين هم المغلوبون ، واذا كان المهاجرون الألمان لا يستطيعون ان يعتبروا انفسهم اسياد الجزائريين فانهم على الأقل تحت رعاية اسيادهم من الفرنسيين ، الذين لا تسمح لهم مصلحتهم بأن يتركوا المواطن الجزائري يصعد فوق راس المستعمرين ، وسوف لن يمر وقت طويل حتى يصبح عدد الأروبيين في المناطق الخصبة أكثر من عدد السكان الاصليين ! (ص 71)

وعلى اية حال فان فينكلمان لم يكن يهمه شيء آخر أكثر من أن يعيش ابناء وطنه في بلاد تمنح الأرض منحا ، ويباع ثور المواطن الـــذي اخذ منه قسرا بخمسة وعشرين فرنكا لا غير ، أما حزن هذا المواطن فليدفن في احضان الرمال والجبال الجدبية !

الفصل الرابع

هرمان هاوف

في سنة 1835 أصدر رمان هاوف بمشاركة ادوارد فيدرمان كتابا صغير الحجم ، طبع في مدينة شتوتغارت ، وضع له عنوان « الجزائر كما هي » . ويتضمن الكتاب في مجموعه معلومات عامة ، لا تختلف عما نجده في بقية الكتب الأخرى التي تحدثت عن الجزائر من الناحية الجغرافية والطبيعية والمعمارية وغير ذلك ، ولا يهمنا من هذا الكتاب سوى مقدمته . فالمؤلف لا يبدي اعجابه بجرأة فرنسا الى الحد الذي ينسيه واجبه كمؤرخ ، ولا يعتبر مسالة احتلالها للجزائر قضية مسلمة كما فعل غيره ، وانما يحاول أن يناقش الاسباب التي أدت اليه مناقشة منطقية هادئة .

يرى هاوف أن الاستيلاء على الجزائر أهم حادثة في القرن الماضي ، أي حتى الوقت الذي وضع فيه كتابه . فقد ارعبت الجزائر ، على حد تعبيره ، الشعوب التجارية واستبدت بالبحر الابيض المتوسط ، وارغمت شارل الخامس على الفرار أمامها بصورة مخزية . ومع أن انجلترا نفسها كانت سيدة البحار ، فانها لم تستطع أن تملي اتفاقياتها على الجزائر الا بصورة موقتة . وكانت الجزائر قد أجبرت الشعوب خلال قرون عديدة على دفع اتاوة لها نظير مرور سفنها التجارية بالبحر الابيض المتوسط . ثم كانت هذه الجزائر نفسها غنيمة للجيش الفرنسي ، فاختفت اختفاء الظل . وتمكنت فرنسا من احتلال هذه المنطقة الجميلة بكل هدوء ، ومن الممكن أن تؤدي الى نشوب حرب بين أنجلترا وفرنسا وتركيا . (ص 1)

ولكن هذه الاسباب كلها لم تكن كافية ، في نظر المؤلف ، لاحتلال الجزائر والقضاء على سيطرتها قضاء تاما . فعندما قررت فرنسا ارسال حملتها الى الجزائر لم يكن وضع نهاية للقرصنة هو السبب الوحيد في الاقدام على خطوة خطيرة كهذه . فمما لا شك فيه أن هذه الحملة ، التي بدت في ظاهرها عملا انسانيا وحضاريا ، قد ارتبطت باطماع شخصية بحتة . ويضيف هاوف أن انجلترا قد راقبت الاعداد لتلك الحملة والانفاق عليها بسخاء ثم القيام بها بنجاح تام ، بنوع من اللامبالاة لم يعهد فيها ، الامر الذي استغربته منها أروبا كلها . وقد راجت اشاعة في ذلك الحين ، مؤداها أن فرنسا قد تعهدت لانجلترا بالتخلي عن الجزائر بعد القضاء على القرصنة وترك سرب من الجنود فيها لحماية الحركة التجارية في البحر الأبيض المتوسط ، ولكن ثورة جويلية قد وضعت لعملية الاستيلاء على الجزائر أهدافا أخرى ، لم تكن في أغلب الظن مقصودة في بداية سنة 1830 . (ص 2)

وبذلك اصبحت مشكلة الجزائر مشكلة وطنية بعد أن كانت مجرد قضية وزارية . واذا كان ملك فرنسا قد حدد في ذلك الوقت نوع وطبيعة الحملة التي كان ينوي القيام بها دون أن يسأل الشعب عن رأيه فيها ، فقد أصبح من الصعب عليه الآن أن يقرر مصير الجزائر أو التخلي عنها دون الرجوع الى الشعب . واذا كانت انجلترا ، في راي المؤلف ، حتى لو فرضنا انه قد وجد بالفعل اتفاق سري بين الدولتين ، لم تطالب تلك الأحداث بتنفيذ الأمور المتفق عليها ، فان ذلك يرجع الى رغبتها في المحافظة على تحالفها مع فرنسا بأي ثمن وعدم المساس بوضعها الخاص . ولا يمكن أن يصدق المرء أن فرنسا لم تتخذ قرارا بشان استعمار الجزائر خوفا من اية دولة اخرى غير انجلترا ، لأن حكومة فرنسا قد اخذت منذ ثورة جويلية تستهين بدول القارة كلها وتعتدي على مصالحها بشتى الطرق والوسائل . وسواء تم هذا الاتفاق المشكوك فيه بين انجلترا وفرنسا او كان مجرد اسطورة ، فان فرنسا كانت في حيرة من امرها بشان استعمار الجزائر أو التخلي عنها نهائيا .

ويقول هاوف ان احتلال الجزائر في ظروف كهذه لا يفيد فرنسا في شيء ، وانما يلحق بها ابلغ الضرر ، ويستدل على ذلك بأرقام المبالغ التي تدفعها سنويا من اجل المحافظة على المناطق التي تمكنت منها وحدها ، وهي

تبلغ مائة وعشرين مليونا . واذا حدث سوء تفاهم بين انجلترا وفرنسا وتعرضت هذه لأحداث سياسية غير متوقعة . . فان قضية الجزائر لن تبقى عندئذ غامضة لمدة طويلة . ويستبعد المؤلف أن تكون فرنسا قد أقبلت على تلك التضحيات الجسام ، لو أنها لم تكن تعتقد أن في امكانها الحصول على مبالغ مناسبة من جهة من الجهات ، كما أن اهانة موظف صغير ما كانت لتؤدي بالضرورة الى الحرب ، لو ان فرنسا كانت في وضع يسمح لها بالتجاوز عن الامور البسيطة . ويقدم دليلا قويا على ذلك وهو ان الاهانات المتكررة التي لحقتها من طرف « الدون ميكيل » ما كان في مقدورها أبدا ان تنتهي بها الى اعلان الحرب على البرتغال ! وعلى هذا فان فرنسا قد مسحت أثر المروحة من وجه قنصلها بالدم ، لأن ذلك يعود عليها بالفائدة ! (ص 3 — 4)

وينتقل المؤلف بعد هذا الى الحديث عن الجزائريين فيقول : **لقد ظنوا ، بعد طرد الاتراك ، أن في مقدورهم الآن أن يرفعوا رؤوسهم ، خاصة بعد أن عين البعض منهم في مناصب معينة ، غير أن الفرنسيين سرعان ما أظهروا لهم أن عليهم أن يخضعوا للفرنسيين كما خضعوا للاتراك قبلهم . ومنذ تلك اللحظة عاود الجزائريين الحنين الى أسيادهم السابقين . . لأن عهدهم كان أنسب لهم من جميع الوجوه . وقد دفعهم هذا الحنين الى الهجرة الى الشرق للالتحاق بهم هناك . ولاشك أن هاوف قد أخطأ في رأيه هذا ، فالجزائريون لم يهاجروا الى الشرق ، لانهم اشتاقوا لرؤية الاتراك ، وانما هاجروا لانهم فقدوا حريتهم ودنست أرضهم ، ففضلوا العيش في بلاد اسلامية ، سواء كانت هذه البلاد تونس أو مصر أو الشام أو الحجاز أو غيرها .**

وكيفما كان الأمر فان هاوف ربما يكون من بين الألمان الوحيد الذي حاول مناقشة الاسباب التي أدت الى احتلال الجزائر واثارة قضية المروحة دون جعلها سببا فيما حدث بعدها . ومن ثم فان مناقشته هذه جديرة بأن يتعرض لها الباحثون عند التاريخ لهذه الفترة والظروف الناتجة عنها .

الفصل الخامس

موريتس فاغنر

فاغنر عالم طبيعي ورحال الماني (1813 — 1887) ظهرت مواهبه وهو لم يتجاوز بعد الخامسة عشرة من عمره ، فنظم أشعارا وكتب مقالات وقصصا وكان الى ذلك يبدي منذ طفولته ميلا لمراقبة الحيوانات والنباتات ، فاشار عليه اخوه رودولف ، الذي كان يشغل منصب استاذ في جامعة ارلانغن ، بأن يعمق معلوماته في علم الحيوان . والتحق بوظيفة تجارية في مدينة مارسيليا ، مكنته من القيام بزيارة قصيرة للجزائر سنة 1835 ، فحملته هذه الزيارة القصيرة على العودة اليها عام 1836 كمراقب وجامع للاشياء الطبيعية ، فحل بها في شهر أكتوبر من السنة المذكورة . وقد حمل معه توصيات من باريس اتاحت له على الخصوص الاتصال بادريان بيربرغر وتوثيق علاقته به ، كما سمح له دامريمون بالانضمام الى اللجنة العلمية التي كلفت باعداد بحوث عن الجزائر ، فشارك في حملة قسنطينة والبليدة ورغاية . وبعد توقيع الهدنة زار مدينة معسكر تحت حماية الأمير عبد القادر . ولما ترك الجزائر قام برحلات في بلدان اروبا وآسيا وأمريكا الشمالية والجنوبية ، ثم استقر اخيرا بمدينة مونشن ، حيث انتخب عضوا في المجمع العلمي ، وتفرغ لدراسته نظرية داروين في النشوء والارتقاء وساعد على فهمها اكثر من أي عالم آخر باستثناء ارنست هيكل (1834 — 1919) ، وحور عبارة داروين البقاء للاصلاح فجعل منها البقاء للاصغر والأقوى ! ولما تقدمت به السن وعجز عن العمل وضع حدا لحياته !

وضع موريتس فاغنر كتابا عن الجزائر بعنوان « رحلات في ولاية الجزائر في سنوات 1836 ، 1837 و 1838 » ، صدر في مدينة لايبتسيغ سنة 1841. ويتكون كتابه من ثلاثة أجزاء ، وصف في الاول مدينة الجزائر والمدن الأخرى التي شاهدها ؛ وتحدث في الثاني عن تاريخ الاحتلال والمعارك التي حضرها ، اما الجزء الثالث فقد خص به الفونة أو المجموعة الحيوانية الجزائرية ؛ وضع هذا الجزء بمشاركة أخيه رودولف .

ينتقد المؤلف في مقدمة كتابه الرحالين الذين سبقوه ، فيقول عن كامبل انه نجح كشاعر ولكنه ينجح كرحالة ، فما يجده الانسان في رسائله لا يزيد عن انطباعات السواح العادية زد على ذلك أن اقامته في الجزائر كانت قصيرة جدا ، فهو لم يبق مثلا أكثر من ساعة واحدة في مدينة معسكر وعاد بسرعة الى وهران ، وهو سعيد لان في امكانه أن يقول للقراء الانجليز بانه قد زار عاصمة الأمير ! ويرى فاغنر ان « سيميلسو » أكثر سطحية منه ، ذلك ان مؤلفه الأمير بوكلر — موسكاو يمتاز بذكائه ودقة ملاحظته وظرافة نكتته ، ولكنه كرجل الصالونات لم يكن يصلح للاقامة بين الجزائريين ولا كانت لديه القدرة على فهم حياتهم ووصفها كما ينبغي . (ص 1 / 19)

والحقيقة أن فاغنر مصيب في هذا الى حد بعيد ، فكتاب بوكلر — موسكاو « سيميلسو في افريقيا » لا يحتوي على الكثير مما هو جدير بالاعتبار ، وتجاربه في الجزائر ليست ذات أهمية من الناحية التاريخية ، فاكثر ما كان يهمه هو تنوع المناظر الطبيعية التي رآها في جوانب من الساحل الجزائري ، لا سيما منطقة ما بين الجزائر وعنابة . ومن هنا أسهب في وصفها ، اما فيما عدا ذلك فانه يكتفي بالتعليق على هذه الحادثة أو تلك ، وينقل بين الحين والآخر الرسائل التي كان المحاربون الجزائريون يوجهونها الى الجنرال الفرنسي بوهران او الى الوالي العام بالجزائر . ومن جملة هذه الرسائل الرسالة التي ارسلها الامير عبد القادر الى حاكم وهران ، وانكر عليه فيها تهديده اياه باعلان الحرب عليه ا نهو لم يعمل على تطبيق شروط المعاهدة . وفيها يخبر الأمير الجنرال المغرور ان البدوي لا صنعة له غير الحرب وانه في انتظار مرتزقته في أي وقت كان . . وخيوله نفسها تحمحم تشوقا للحرب والنزال !

وبعد هذا يتحدث بوكلر موسكاو عن قبول الجزائريين لكل انواع التحدي وعدم الرضا بالهون ويقون عنهم ان اسلوبهم في المجابهة يفيض عزما وقوة ويضرب مثلا على ذلك جواب قبيلة كانت تسكن في نواحي دلس على رسالة بعث بها اليها الوالي العام .. يهددها فيها بسبب اعتقالها لجنود غرقت سفينتهم قرب الشاطي . وقد جاء في هذا الجواب : « **الى حاكم الجزائر الذي يحكم أبعد مما هو في حوزته ، اعلم أن أحرار دلس هم أسياد أنفسهم !** »

ثم ينتقل بوكلر ـ موسكار عن صديقه كليميرات الذي شاهد الامير قوله :

« **ان الانطباع الذي تركه الأمير في نفسي هو انطباع سياسي أروبي حاذق لبق أكثر منه انطباع محارب عربي مخيف !** » وكان بوكلر ـ موسكاو قد نشر كتابه بسنة 1836 ، وروى في الجزء الثاني كيف تعلم اللغة العربية عند مثقف مصري يدعى فرعون ، كان قد شارك في حملة اسماعيل ضد الوهابيين ، ثم ارسله الباشا مع عدد من المصريين الى باريس ، ومنها ذهب الى الجزائر وأصبح مترجم الحاكم العام واستاذ اللغة العربية في احدى المدارس . ولنكتف بهذا القدر عن بوكلر ـ موسكاو لقلة أهميته ، كما ذكرت ، ولذلك أتعرض على حدة ، ونرجع الى فاغنر .

ويصف فاغنر اقامة روزيه بانها كانت قصيرة ايضا واقتصرت على الجزائر والبليدة والمدية ووهران ، بينما اهتم ميلتيتس بوصف الجزائر ولم يتجاوزها الى سواها ، ويثنى على شيمبر ويتاسف لأن وصفه اقتصر ايضا على الجزائر وضواحيها . ولعله من الجدير بنا ان نذكر هنا أن فاغنر قد اهدى كتابه ولي العهد الفرنسي ، وذلك ما قد يحمل القاريء على الاعتقاد بأن المؤلف يتعصب لفرنسا ، ولكن احد العسكريين الالمان وهو كارل ديكر ، يدافع عنه بأن مواصلة القراءة لا تلبث أن تقنعه بخلاف ذلك .. ويعتبره أحسن كتاب الماني وضع عن الجزائر حتى سنة صدور كتابه هو سنة 1844 . والواقع أن كتاب فاغنر لا يخلو من التعصب ، فقد صبغ عباراته بصبغة الفرنسيين الذين كانت له بهم علاقة وطيدة ، فنمت عن حقده على الجزائريين ووصفهم بالهمجية في غير ما موضع ، على الرغم من انه زار مناطق عربية مستقلة وساعده رجال الأمير على أداء مهمته ، وعلى الخصوص حاكم معسكر الحاج بخاري . وكان قد اخذ رسالتين احداهما من الجنرال فالي والاخرى من بيليسيى ، مدير المكتب

العربي ، ذكرا فيهما انه طبيب يرغب في البحث عن النباتات الطبية في منطقة وهران الداخلية ، ولكن فاغنر يعترف بأن هذه الحيل لم تعد تفيد ، فالعرب يرون في كل أروبي جاسوسا لفرنسا ، بعد أن سافر كثير منهم تحت هذا الستار لاستكشاف منطقة الأمير ووضع خرائط عنها . ومع هذا فهو ياخذ على الجزائريين انهم لا يثقون في احد ومن ثم فان على كل انسان ان يكون حذرا منهم الحذر كله ، ويصف مرافقيه وصفا مرزيا . . وشعر بالخوف من أحدهم وهو يؤدي فريضة الصلاة . وهذا لا يعني انه من جهة أخرى راض عن كل ما قام به المعتدون ، كما سنرى فيما بعد .

ويبدا المؤلف كتابه بوصف ميناء الجزائر والحديث عن العاصفة التي حطمت قبل سنة ثلاثين سفينة فامتلات شبه الجزيرة ، على حد تعبيره ، بالبضائع والانقاض . ويذكر ان وصول السفن الى ميناء الجزائر يعتبر عيدا بالنسبة لأهل البلاد ، فهم يكسبون في اليوم الواحد ما يكفيهم لعدة أيام ، وذلك لان ما بين الاسبان وبينهم من عداوة وتنافر قد أجبرهم على أن يتقاسموا العمل معهم ويشتغلوا يوما دون آخر . وكانت الباخرة لا تصل الى الجزائر الا مرة في الاسبوع ، ويتكون العمال الجزائريون من العرب والزنوج والبسكريين ، وقد داب الألمان على الحديث عن الأخيرين بصورة خاصة . ومن ثم يشير المؤلف الى أن الثياب الرثة ليست دائما ثياب الدراويش ، كما أن الطعام القليل ليس دليلا على الفقر والعوز . فهناك من البسكريين من يحمل تحت ثيابه خمسين دولارا اسبانيا ويشد عليها كما يشد على أمعائه ، ومع هذا فان روائح المطاعم الفرنسية الطيبة لا تثير شهيته باي حال من الأحوال ، وانما يكتفي بالخبز الرديء ياكله مع التين او التفاح ، ويتناول طعامه في قاعة اكله تحت النجوم الجميلة ، وهي في الوقت نفسه بهوه وغرفة نومه ! (1 / 30 — 32)

ويصف الاشياء التي كانت تعرض في السوق بساحة الحكومة ويقول ان هناك من المبيعات ما هو مقصور على البعض دون الآخر ، فالاسبان يبيعون الورود والازهار والمالطيون الاسماك والخضر والبرتغال والعرب الطيور والحيوانات البرية ، وكانت الارقام مكتوبة بالفرنجية ، وكان النطق بها أقرب الى الاسبانية منه الى الايطالية ، وتحدث عن حيوانات غريبة شاهدها تباع في السوق . (1 / 34 — 35) ويذكر بعد ذلك ان كلمة « الجزائر » تعني

« الغازية » وهذا الاسم يوحي بالبطولة والقوة ! وحين يسال المرء أهل البلاد لماذا دعيت الجزائر بالغازية ، يجيبون « لانها اخضعت المسيحيين ! » (ص 36) . ويحدد سكانها عند منتصف سنة 1839 بـ 28 الفا باستثناء الجيش الفرنسي ، 9 آلاف من حضر و 6 آلاف من اليهود و 5 آلاف من « أجناس مختلفة من أهل البلاد » و 8 آلاف من الأروبيين ، ولكنه يعترف بان هذه الاحصاءات ليست دقيقة ! فعدد الأروبيين غير معروف بالضبط ، لأن الكثير منهم لم يسجل اسمه خوفا من التجنيد . وكان الرحالة القدامى ، امثال شو ، بنانتي وشالر ، قد قدروا سكانها بعدد مرتفع ، فجعلهم شو 100 الف وبنانتي 60 ألفا ، وكانت هذه التقديرات اعتباطية ، فالحكومة الجزائرية لم يكن لها أي نوع من السجلات ، ويقدر عدد المهاجرين الجزائريين بحوالي 15 الفا ، وحل محلهم حوالي نصف هذا العدد من الاروبيين . (1 / 37)

وبعد أن يتحدث عن الحيين العربي والاروبي ويصف شوارعهما وازقتهما يذكر البناية التي تحتضن المدرسة والمكتبة ، ويدير هذه آدريان بيربرغر ، وفي المدرسة يتعلم الكثير من ابناء الأمم المتخلفة العربية والفرنسية . اما المكتبة فتحتوي على حوالي 600 كتاب ، منها كتاب معروف عن مصر ومخطوطات عربية أخرى نفيسة استولى عليها الفرنسيون في دار ابن عيسى بقسنطينة وفي مساجد أخرى من المدينة نفسها ! (ص 1 / 47 — 48)

ويؤكد فاغنر ما ذكره شيمبر من الحكومة الفرنسية قد هدمت الكثير من المساجد اما لتوسيع الشوارع او لاقامة بنايات جديدة في محلها ، وقد لقي المسجد ، الذي كان قديما يحتل مكان السوق الآن ، نفس المصير ، ونقلت أعمدته المرمرية الى اماكن اخرى ، وقد كان هذا المسجد أفخر جامع بالجزائر . وهناك مساجد اخرى فقدت وظيفتها القديمة ، فأصبح مسجد مسرحا وآخر مخزنا للتبن وثالث ثكنة . ويعلق فاغنر على هذا بقوله : « **هكذا اعتدت فرنسا على حرمات المسلمين ، وذلك ما لن يغفره لها الجزائريون ولن ينسوه أبدا ! »** (ص 48 — 49) ويشير كذلك الى ان عدد المدارس قبل دخول الفرنسيين كان مرتفعا ، فقد بلغ حوالي 100 مدرسة ، لم يبق منها اليوم سوى النصف تقريبا ، يذكر مواد الدراسة ويصف علاقة الاستاذ بطلابه والثقة التي تسود هذه العلاقة وبقاءها حتى بعد انتهاء الطالب من دراسته . (1 / 56)

وينتقل المؤلف الى الحديث عن المحكمة العليا ، ويذكر انها كانت تتالف من خمسة قضاة ، من بينهم يهودي ومسلم ، ثم صار عددهم لا يتجاوز اثنين يضاف اليهما رئيس له صوت واحد ، وكان القاضي هو الذي يفصل بين الأهالي ، وكانت المرافعات تستمر أحيانا حتى ساعة متاخرة من الليل . . ولم تكن تخلو من مهازل بسبب الخطا في الترجمة ! (1 / 58) اما المحكمة العسكرية فكانت تقع قرب باب عزون ، وكانت تجتمع باستمرار للنظر في الجرائم التي يرتكبها جنود الجيش الافريقي ، وتتمثل في بيع الاسلحة والذخيرة . واحكام الاعدام لم تكن قليلة ، وخصوصا في أيام روفيقو ، حيث كان الاعدام ينفذ في كل أسبوع . ويتعرض لقضية مونصل التي أثارت اهتمام الراي العام في ذلك الحين ، وتتبع الجزائريون أخبار محاكمته برئاسة الالزاسي شاونبورغ بعناية خاصة ، لأن مونصل كان مسلما مثلهم . وكان قد فر من الجيش الفرنسي بعد اهانة الحقها به رئيسه ، وانضم الى الحجوط وتزوج منهم واصبح شيخ دوار ، وقد أعجب الامير عبد القادر بشجاعته ومنحه ثقته ، حتى أنه وجهه رسولا الى سلطان المغرب . (1 / 60)

وبعد أن تمكن مونصل من الانتقام من الضابط الذي اهانه وركله ، القي عليه القبض في سوق الاربعاء بمنطقة سيدي موسى ، وذلك بواسطة احد ضباط المكتب العربي . وقد مثل أمام المحكمة في ثياب عربية ، فكان كما يقول فاغنر ، أشبه بالمرابط منه بالمجرم . وعندما تكلم سحر الجنود بالفاظه الجميلة فطالبوا بالعفو عنه ، ولكن القاضي لم يستجب لهذا الطلب ، فحكم عليه بالاعدام واعدم امام باب الواد . فاقسمت قبيلة الحجوط بأن تثار له ، وقد وفت بذلك ، فجميع الاعمال الحربية والمناوشات التي حالت دون توقيع معاهدة تافنة وتجددت منذ نهاية سنة 1937 انما كانت انتقاما لمونصل ، فلم يغفروا ذلك للجنرال دامريمون كما لم يغفروا لروفيقو قتل العربي بن موسى . (1 / 61 — 62) وبعد هذا يتحدث فاغنر عن محكمة القاضي المالكي والقاضي الحنفي قرب باب الواد ويذكر ان منصب القاضي كان يشغله في سنتي 37 — 1838 سيدي احمد بن جدو (1 / 63) .

واسواق الجزائر ، في نظر المؤلف ، لا تشبه لا أسواق بغداد ولا أسواق مدينة القسنطينة ، فقد قضى الفرنسيون على الاسواق الجميلة وأقاموا مكانها

دكاكين ومخازن اروبية . اما محلات العرب فهـي صغيرة جدا ، واغلب اصحابها من الكراغلة ، وتباع فيها البلغ ومحافظ النقود وغير ذلك ، وتتكون البضائع على الاكثر من العطور مثل الورد والياسمين والمصنوعات الحريرية ، وهي جميلة الى حد بعيد على الرغـم من انها مصنوعة يدويا . (1 / 67) وتتناثر المقاهي بين هذه المحلات ، حيث يوجد منها في الحي العربي وحده حوالي 60 مقهى ، يتعلم الاجنبي فيها مختلف المصطلحات الجزائرية . وأحسن مقهى عربي ، يكثر فيه الرواد ، يقع في شارع الديوان ، ويزوره عدد كبير من الاروبيين لجودة القهوة فيه ولوجود الموسيقى . ويدير الفرقة عربي ، كان في القديم موسيقار الداي الخاص ، ويمتاز بالمهارة في العزف والقيام في أثناء ذلك بحركات غريبة جدا تجلب أنظار الناس اليه ، وفي بعض الأحيان تظهر في نفس المقهى فتيات ليرقصن ويغنين .

وصاحب المقهى هو اخو ابراهيم شاوش ، او جلاد الجزائر ، وله ثروة كبيرة . أما المقاهي في القسم الاعلى من المدينة فان المشاهد فيها اكثر أصالة وجنونا ، ففيه يوجد المقهى اليوناني وصاحبه ذو مقدمة كبيرة على اجتذاب الناس اليه باخص الوسائل . فكانت تجتمع في مقهاه حثالات البشر من كل جنس من غير تمييز عنصريا كان او دينيا ، فكان فيهـم المسلم والمسيحي واليهودي والاروبي والافريقي . وفي هذا المقهى تخـتلط اصوات السكارى رجالا ونساء باصوات الآلات الموسيقية بشكل غريب ! (1 / 71 — 72)

ويشير فاغنر الى أن هناك حفلات خاصة تقام في أوقات معينة ، ففي أيام رمضان مثلا تقام حفلات القرقوز ، يحضرها العرب والأروبيون على حد سواء والقرقوز شخصية بدوية تمتاز بكبر الحجم والنكتة اللاذعة والهياة المضحكة . وتتمثل وظيفة القرقوز في شيء واحد وهو أن يضارب الجنود الفرنسيين من بداية المسرحية حتى نهايتها . وكان صاحب المسرح أحد المترجمين ، ولذلك كان يخلط العربـيـة بالفرنسية بصورة غريبة بقصد تسلـيـة المشاهدين من الاروبيين . وكان وجود الجنود الفرنسيين في مسرح القرقوز لهذا الغرض ايضا ، حسب ما يراه المؤلف ، ولكن الواقع كان خـلاف ذلك ، فمصارعة القرقوز للجنود الفرنسيين كانت تمثل في الحقيقـة مقاومة الأرياف للوجود الأجنبي ، ويكفي دليلا على هذا أن الحكـومة الاستعمارية لجأت في سنة

1843 الى منع اقامة حفلات من هذا النوع ، لا غرض منها سوى الاستهزاء بها والسخرية من جنودها . ولعل من بين أغراضها أيضا ما ذكره المؤلف (1 / 80) من أن العرب كانوا يحرصون على ارسال ابنائهم الى مشاهدة مسرحيات القرقوز !

ويصف فاغنر شابا عربيا أعدم بباب عزون في 20 يناير 1837 ، وقد جعلت ساحة الاعدام في المكان المذكور بقصد اثارة الرعب في نفوس المواطنين الذين كانوا يجتمعون في السوق . وكان قد وجهت اليه تهمة التجارة بالبارود والثورة ضد الحكومة . فتقدم الشاب ، وكان قد تزوج حديثا ، الى المقصلة ، منتصب القامة ، مرفوع الراس ، لم يكن في خطاه ما يدل على أنه خائف ، والقى نظرة متحدية على الشاوش ابراهيم . ولما انتهى الترجمان من قراءة الحكم الصادر فيه ، أقسم الشاب انه بريء ، ثم توجه الى القبلة واحنى راسه ، وصعد بعد ذلك بخطى ثابتة . . صعود الباشا للجلوس على العرش الذي أعد له . وتم اعدامه بثلاث ضربات حسب الطريقة الجزائرية ، وكان الفرنسيون قد احتفظوا بها » (1 / 92 — 93)

ويرى فاغنر أن دناءة الفرنسيين تجلت بوضوح في فتح القبور والاضرحة الجميلة بحثا عن الاموال ونقل حجارتها الى أمكنة أخرى ، وأفظع من هذا ان الفرنسيين اخذوا عظام الموتى وحملوها بالسفن الى فرنسا لبيعها لمعامل مسحوق العظام ، ومسؤولية هذه الاعمال البغيضة تقع على عاتق روفيقو ، فقد دفعه حقده على المسلمين الى جرح مشاعرهم الدينية ، حتى أنه استعمل لهذا الغرض عددا من الجزائريين من قبائل وبسكريين ، وارغمهم على فتح القبور وتحطيم اخوانهم في الدين ، وفيهم الأب والاخ والقريب . وبما ان عمليات الاعدام كانت تتم يوميا تقريبا ، فان الخوف كان قد تمكن منهم وشل ايديهم والسنتهم ، فلم يجدوا الجزاة على الاحتجاج على هدم قبور اوليائهم وذويهم ، وهكذا شهدوا هذه المناظر برؤوس مطرقة ووجوه عابسة ، الا ان هذا كله لم يمنع البعض منهم من جمع تلك العظام بعناية ودفنها في مكان آخر . وقد تحدث عن ذلك كل من الجزائريين والفرنسيين بصورة علنية ، وان حاولت الجهات المسؤولة تكذيب ذلك ! ويضيف فاغنر أن جميع من كتبوا عن الجزائر قد احتجوا على هذه الأعمال الوحشية التي شملت حتى قداسة الاضرحة ،

مما أدى الى حدوث استياء عام بين الأوســاط الخاصة ، لأن انعدام حرية الصحافة في فرنسا قد حال دون وصول مثل هذه الجرائم الى آذان الشعب هنــاك . (1 / 96 ــ 97)

وبعد هذا يثني المؤلف على عزة العربي وانفته واحتفاظه بقامته المنتصبة حتى في أحرج الظروف ! ويضرب المثل على ذلك بالجزائريين الذين تم أسرهم قرب البليدة في شهر ماي 1837 ، فعندما مروا امام الجنرال دامريمون كانوا مرفوعي الراس ، واضحي النظرة ، وكــانوا يجيبون على اسئلته في أنفة وكبرياء . ثم يقول ان مفهوم الحرية عند الجزائريين لا يصل الى الحد الذي تصبح فيه الفوضى عملا مباحا والجريمة شيئا لا يتطلب العقاب . فالقبائل لم تكن لتلتف حول الأمير عبد القادر لو أنه لم يقض علــى الفوضى التي عمت الجزائر بعد سقوط الحكم التركي . فحين احتل الفرنسيون الجزائر لم يكن يحدث في داخل البلاد ، وقد حملت فرحة الخلاص من نير الاتراك العرب على ارتباك عدة أعمال كريهة ، ولما تكررت هذه الاحداث مــن الجانبين ، وأصبحوا مرة سراقا وأخرى مسروقين ، ضجروا من هذه الاوضاع ولجاوا الى رؤسائهم لاعادة أمورهم الى مجاريها الطبيعية ، وعلــى هذه الصورة انتشرت رقعة سيادة الأمير عبد القادر وتمت له الغلبة ! (2 / 25 ، 2 / 41)

ويلي هذا حديث المؤلف عن الأحداث العسكرية في الغرب الجزائري ، ويبدو أنه قد استقى أغلبها من حوليات بيليسي ، وقد كان صديقه الذي حمله رسالة الى رجال الأمير كما سبق القول . ويذكر الخراب والدمــار الذين الحقهما جنود فرنسا بمختلف مناطق الجزائر ، ويشنع باعمال هؤلاء الجنود في قالمة حيث حطموا جدرانها القائمة وفتحوا المقاهي والدكاكين ، ويتعجب كيف استطاع هذا الشعب أن يتعدى على قداسة الآثار القديمة على الرغم من دوران كلمة المدينة على فمه ، ويوردما وصف به شاعر الماني الفرنسيين من انهــم فندال ! ويقول : **ان هذه الحرب انما هي حرب ضد الاحياء والاموات، وسخرية من تراب الاجداد بقدر ما هي سخرية من المجد والتاريخ والعلم ، فقد حطم الجنود أعمدة المعبد المرمرية لمجرد أنها كانت تقوم وسط الطريق المؤدي الى الخمارة ، ونزعوا عنها ما كان فوقها من نقوش ، لان الحجارة الملساء انسب للبلاط !** ويعلن غضبه على تدمير الوثائق الوحيدة التي تتحدث عــن ماضي

غالمة ... والشهود الناطقة بمجدها وحضارتها . ويثور فاغنر على قطع الاشجار ايضا ، فان ذلك في نظره ، بمثابة قتل المرضعة ، فهي تحمل في اعماقها ما يسد به المدمر الأحمق رمقه في المستقبل ! (1 / 95) .

وبلغ الغضب بالمؤلف مبلغا كبيرا ، جعله يتمنى لو ان الضباع ، ويسميها حارسة الآثار القديمة ، انطلقت من مقامها الجليل لتمزق الدخلاء على حرمها اشلاء ، ويتساءل لماذا لا ينهد الجبل الراسخ مرة أخرى ويقضي على الطغاة ، كما حدث في وقت سابق ! ويرى المؤلف بعد هذا ان تشبيه الجنود وأصحاب الخمارات الفرنسيين بالفندال غير مناسب ، لانـه لم يسبق لا للفندال ولا للشرقيين أن تعرضوا للآثار القديمة بالتخريب والهدم .. احتراما منهم لبقية الديانات الاخرى ! وقد اصطحب فاغنر معه أدريان بيربرغر وذهب يشكو الى قائد الجيش الفرنسي دوفيفي ، ولكن القائد لم يزد ، على حد تعبير فاغنر ، على أن مسح لحيته بيده ، وراح يشكو بدوره من رغبة الجنود في الهدم وعدم طاعتهم وأنه لا يرى حلا لهذه المشكلة .. ثم أخذ يدافع عن الجنود وعن الانانية التي غرستها في نفوسهم صعوبة الحياة في الجزائر وظروف الحرب ! ويعلق فاغنر على موقف دوفيفي هذا بانه ينتظر من وراء ذلك ان ينال ترقية في وزارة الحـربية ! (1 / 298)

ويتناول المؤلف في حوالي 80 صفحة (2 / 261 — 338) حملة قسنطينة التي شارك فيها بنفسه ضمن اعضاء البعثة العلميـة ، ويصفها بصورة مفصلة ، وكان قد نشر هذا الوصف في احدى الجرائد الألمانية سنة 1837 ، ويقول انه كتب قسما منه في الخيمة . فيتحدث عن معسكر مجاز عمار والقوات الفرسية التي كانت موجودة فيه ، ويصف الشخصيات العسكرية المختلفة ومن انضم الى جيش العدو مثل ابن زكري والحاج سليمان ، ومرور القوات براس العقبة ثم الوصول الى قسنطينة وضرب المعسكر في المنصورة واطلاق نيران المدافع على المدينة واشتباكات الخيالة التي سبقتها وبالتالي الهجوم عليها من جهة الكدية .. كما يشير الى زغردة النساء التي كانت تنطلق من فوق السطوح ! وبعد ان سكتت مدافع الجزائريين ظـن دامريمون انهم سيخرجون اليه طالبين الصلح ، ولكنه ، فيما يقول فاغنر ، شعر بالخيبة حين لم يظهر رسول من أجل ذلك ، فالجزائريون لم يكونوا على استعداد للتسليم

ولو هدمت المدينة كلها ! ويذكر أن رسولا ارسل يوم 12 اكتوبر 1837 الى المدينة ، وهو من فرقة الزواوة ، فقبض عليه السكان الى ان ملاوا الثغرة التي احدثتها القنابل في الجدار ، ثـم أطلقوا سراحـه ليقول لمرسليه : « **ان في قسنطينة كثيرا من المؤن والذخائر ، واذا كان الفرنسيون في حاجة الى شيء منها فان في استطاعتنا أن نزودهم بما يريدون ! أما الاستسلام فاننا لا نعرف معناه وسنصمد في الدفاع عن مدينتنا ودورنا . انها لن تسقط في أيديكم ما دام مدافع حيا يرزق !** » وبعد أن سمع دامريمون هذا الجواب قال : « **انهم رجال شجعان فليكن ذلك اذن ! ان المعركة ستكون بالنسبـة لنا أمجد !** (309 / 2)

وقد كانت المعركة بالنسبة اليه على الاقل كما قال ، اذا اصابته رصاصة قاتلة ، فاسرع اليه بربقو فلقي نفس المصير . ولمـا تم للجنود الفرنسيين الوصول الى الثغرة والدخول منها سقط بيت فوق رؤوسهم فقتل كثيرا منهم وعقب ذلك انفجر مخزن للذخيرة فقضى على عدد آخر ، وحين تقدمت فرقة ثانية بقيادة كومب اصيب هو الآخر ولقي مصرعه بعد ايام ، وذلك لأن المدافعين كانوا قد تحصنوا خلف متاريس تكونت بنفسها من الجثث والانقاض واراحوا يتصيدون المهاجمين من كل اتجاه ، واخيرا وجدوا أنفسهم مغلوبين على أمرهم فانسحبوا الى بيت ابن عيسى ، ومن هناك واصلوا مقاومتهم ثم فر بعضهم الى الجبال ومات البعض الآخر واسلحتهم في أيديهم . ومن بينهم وصيفة كان باحدى يديها مسدس وبالاخرى سكين ! (ص 2 / 316 ـ 18)

ويذكر فاغنر انه التقى عند الثغرة لوفيان فساله : « كيف دافع القسنطيون عن أنفسهم ؟ » فاجـابه : « كالشياطين لحما ودما ! » (2 / 320) ثم يقدم وصفا للشوارع وما تراكم فوقها من قتلى وكيف جمـع الموت بين الفرنسي والجزائري فتعانقا .. بعد أن قتل احدهما الآخر . ومما ياخذ على فاغنر انه لم يعف حتى الموتى من سخريته ولم يستطع أن ينسى عنصريته الاروبية امام الاجسام الهامدة ، بحيث يبـدو أن انسانيته مقصورة علـى الآثار القديمة والاضرحة الفاخرة وعظام الموتى ! فالجنود الفرنسيون الموتى كانوا يبدون له كالنائمين وقد ارتسم على وجوههم هدوء بطولي ، وهذا في الوقت الذي

يرى فيه وجوه جثث الجزائريين الملطخة بالدم قد تقصلت عضلاتها الى أبعد حد ، ويتصور ان العصبية تبتسم في ملامح شيخ ابيض اللحية وتحتل لذة الانتصار مكانا فيها ، وكان قد لمح هذا الشيخ جالسا في زاوية احد البيوت ، وقد رفع احدى يديه نحو السماء وشد بالاخرى على مسدس وفتح عينه وفمه ، مما جعله يظن أنه يستغيث باحد ، ولكنه عندما وصل اليه وجده جثة هامدة ! وكان منظر تلك الجثث يوحي لفاغنر بالخوف من انها قد تتحرك في منتصف الليل لتواصل المعركة من جديد ! (2 / 321)

ويقول فاغنر ان المدينة قد نهبت لمدة ثلاثة أيام متتالية ، وعرضت للبيع غنائم مختلفة من زرابي وبرانس وأسلحة ومواد غذائية وكتب عربية وغيرها (2 / 322) ، وقد فاز اليهود ، الذين كانوا يقبلون أيدي الغزاة ويساعدونهم على النهب بأجمل الغنائم ، وذلك بحكم معرفتهم لمحلات المسلمين وما تحتوي عليه من نفائس وتحف . (2 / 326) وقد حدث هذا بعد أن هرب الكثير من المواطين الى وادي الرمل ، نزلوا اليه بحبال ربطوها بالصخور ، ولكن الحبال تقطعت بهم من كثرة من تعلق بها منهم ، فوصلوا الى اعماقه موتى أو بأعضاء مكسرة ، وانتهى هناك ما يزيد عن خمسمائة شخص . (2 / 327) كانت طلقات البنادق تلاحقهم اينما اتجهوا في هلعهم ذاك ، فبقيت جثثهم نصف معلقة فوق نواتيء الصخور . وفوق ناتئة منها جلست امرأة كسرت رجلها وبحضنها طفل في الرابعة من عمره ، لم يصب باي اذى ، فحاول كل من فاغنر وصديقه مورالت الوصول اليها ومساعدتها ، ولكن دون جدوى لصعوبة النزول الى تلك الناتئة . ويثني فاغنر على صديقه الذي بذل كل ما في وسعه لانقاذ المسكينة وطفلها ، حيث وضع مكافاة مالية للجنود الفرنسيين الذين يتمكنون من انقاذها ، فاجتمع اليه في الحين كثير منهم ، واستطاع زواوي ان يصل الى ذلك الموضع الخطير غير ان المراة رفضت ان تستلم اية مساعدة من المسيحيين ، واعربت عن رغبتها في أن تموت هناك هي وطفلها ، واكتفت بطلب جرة الماء ! ولما انزلت اليها بحبل ، سقت طفلها ثم شربت هي ، ودحرجت الجرة الى اعماق الوادي ! ويضيف المؤلف انه لا يعرف ماذا حدث للمراة بعد ذلك ، فعندما عاد الى نفس المكان في اليوم الثاني وجدها قد اختفت مع طفلها . (2 / 328)

وبعد هذا يصف فاغنر حريم باي قسطينة والحفلة الراقصة التي أقامتها

للغزاة الجميلة عائشة ، على حد وصفه لها ، والاسود المقيدة وحارسها الالماني فندلين شلوصر ، ثم يذكر الاشياء التي عثر عليها في دار ابن عيسى زواوي فاصبح ثريا وطلب اعفاءه من الجندية ، ، وتزوج واقام في قسنطينة . (2 / 330) وفي هذه الدار التقى فاغنر بأفراد البعثة العلمية وكانبيربروغر في ذلك الحين يحاول شراء ما وجده عند الجنود من مخطوطات نفيسة ، من بينها « كتاب القضاة » و « تاريخ مدينة قسنطينة » . ويقول فاغنر أن أغلب هذه الكتب قد ضاعت في الطريق الى عنابة ، لان الجنود لم يكونوا يعرفون قيمتها ، ولذلك تركوا على الطريق عدة صناديق ! ويرى المؤلف أن من واجبه أن يعترض على السلب والنهب التي تعرضت له الكتب العربية ، مهما كانت الاعذار التي برر بها الفرنسيون اعمالهم ، فقد ذكره ذلك بفترة حرب غير بعيدة لاقت فيها بعض كتب شيلر على يد الفرنسيين أنفسهم نفس المصير ! فالكتب في الجزائر قليلة جدا ، كما يقول ، ولذلك فهي نفيسة بالنسبة للسكان ، ونادرا ما تمتلك الأسرة العربية أكثر من كتاب واحد . ويعتقد ان الاربعمائة او الخمسمائة كتاب ، التي ارسلت الى مكتبة الجزائر لخزنها في قاعاتها المغبرة ، كان المفروض فيها لهذا السبب أن تبقى في أيدي أصحابها ، أما وقد حدث خلاف ذلك فان هناك كثيرا من الأسر العربية قد حرمت من العلم ومتعة القراءة (2 / 331) !

وبالاضافة الى هذه الحقائق التي ذكرها فاغنر ، وان لم تكن مقصودة لذاتها ، فقد أورد في نهاية الجزء الثالث من كتابه ترجمة مختصرة لكل من الامير عبد القادر واحمد باي ، وفرحات بن سعيد ، وبوعزيز بن غانة ، ومصطفى بن اسماعيل ، ومحمد بن عيسى البركاني والميلود بن عراش . . واطول ترجمة هي ترجمة الأمير .

الفصل السادس

الوجه الاخر لمقابلة تافنلة

قصة المقابلة التاريخية التي جرت بين الجنرال بيجو والامير عبد القادر ، بطلب من الاول والحاح من جانبه ، معروفة لدى الباحثين في تاريخ الجزائر الحديثة . غير ان معرفتهم لها تكاد تقوم ، فيما أعتقد ، على مصادر فرنسية بحتة . وهذه المصادر تحاول احيانا،هذا ان لم نقل في اغلب الاحيان ،أن تقلل من شان المقاومة الوطنية وإن تنظر الى ابطالها نظرة صليبية ، بينما تحرص من جهة اخرى على اظهار الوجه البطولي ، بحق او بغير حق ، لقادة الحملة الفرنسية ، ومن بينهم الجنرال بيجو.ولهذا فمن الضروري أن يرجع الباحثون، عندما يتصدون لكتابة تاريخ الجزائر ، الى مصادر غير فرنسية ، قد تساعدهم بشكل من الاشكال على الوصول الى معرفة حقيقة هذه الاحداث او تلك ، او هي تطلعهم على الاقل على افكار وآراء جديرة بالدرس والمناقشة . ومعروف ان فترة الأمير عبد القادر أحفل فترات تاريخنا بالبطولات وأبعدها اثرا ، ومن ثم فان معرفة الوجه الآخر لتلك المقابلة التاريخية من شانها أن تلقي ضوءا على جانب من هذه البطولات أكثر القا وابعد أنفة وشمما في حياة الأمير على الأخص . وقد روى قصة هذه المقابلة النقيب السويسري فون مورالت وسجلها لصديقه الالماني الدكتور موريتس فاغنر ، فنشرها هذا في كتابه المذكور آنفا .

وكان مورالت قد شارك في حملة بيجو بناء على توصية من طرف الحكومة الفرنسية وحضر تلك المقابلة . ولعله من الطريف أن يقابل الباحثون بين ما

كتبه النقيب السويسري وما كتبه الجنرال بيجو الى وزير الخارجية الفرنسية في ذلك الحين . وفيما يلي نص « الوجه الآخر لمقابلة تافنة »

في الساعة السادسة من صباح أول حزيران (يونيو 1837) ترك الجنرال بيجو معسكره في تافنة ، وتوجه مع أركان حربه الى المكان الذي عين للمقابلة وقد صحبته اليه ست فرق من المشاة وخيالته ومدفعيته . والسبب في ذلك انه كان يريد أن يهيء لخصمه استقبالا عسكريا ، يأمر فيه بعزف الموسيقى واطلاق نيران المدافع تحية له . ولهذا أمر عند وصوله الى المكان المحدد ،الذي انتصبت فيه أشجار صغيرة من النخيل البري والمصطكاء ، بأن تتخذ قواته مواقع مهيبة ، وكان الغرض من هذه الابهة العسكرية احداث أثر في نفس الامير عبد القادر . وانقضت ساعات في انتظار ممل دون ان يرى هناك أثر للامير وجيشه .

وفي آخر الأمر حضر شيخ عربي ، قيل عنه انه وزير الأمير ، وسلم رسالة من « سلطانه » الى الجنرال . ففتح الجنرال الرسالة ــ وعندئذ اقتربنا منه وازدحمنا حوله بدافع الفضول . وبعد أن تلا عليه ترجمانه رمزي ، وهو سوري ، محتواها ، قطب الجنرال حاجبيه ، ثم التفت الى الترجمان قائلا :

ــ قل للوزير بأني تعبت من هذه المماطلات . أخبره بأني ليس معي سوى نصف جيشي ، ومع ذلك فاننا ندعو أميره الى خوض معركة ضدنا .

وبعدئذ وثب رمزي والوزير فوقفرسيهما وأسرعا الى الامير لينقلا اليه هذا الجواب الذي يتوعده فيه . وكـــان الأمير قد سأل في رسالتـــه عن أسعار الاسلحة والذخيرة التي وعد بها ، وقد الح هو وقادته في هذه النقطة ضمن شروط المعاهدة وعبّروا عن رغبتهم فيها بكل صراحة . وهذا وحده كان ينبغي ان ينبه الجنرال الفرنسي الى حقيقة نوايا الأمير ومشاريعه . فالخصم ، الذي يطلب عند عقد المعاهدة تزويده بالاسلحة والذخيرة ، لا ينوي ولاشك ان يكون جادا في ميله الى السلم ، فطلبه يدل على العكس من ذلك على أنه يفكر في حرب جديدة . وبيجو اذكى من ان يجهل عواقب المعاهدة ، الا انه كان يعرف انه قد تجاوز الحد في تصرفاته وأن الوقت المناسب للحرب قد انقضى في اثناء المفاوضات وأن المؤن على وشك الانتهاء . وكان يعتقد أن أمره سينكشف ،

كما أنه كان يخشى حملات الصحافة المعادية ، اذا هو عاد الى وهران من غير ان يحارب ولا أن يبرم المعاهدة مع الأمير ، ودون ان يحقق شيئا من الحملة التي سبقتها دعاية كبيرة . وهكذا ضحى ، لكلي يوفر على نفسه الفضيحة ، بجميع الاعتبارات الكبيرة .

ومرت الساعات ، وانحدرت الشمس انحدارا عميقا الى حد ما ، وبرغم ذلك لم يبد بعد للامير اثر . وتاخر كذلك ترجماننا . وكان بيجو يحاول أن يخفي امتعاضه وتبرمه ، بينما كان الضباط يهمهمون ، وقد سمعت أحدهم يقـــول :

ــ لن يحضر الأمير ابدا . ان جنرالنا سيتلقى صفعة جيدة .

وتناثرت ملاحظات مقذعة بين الجنود . ولكيلا يسمع الجنرال حديثهم ، ولكي يتجنب العتاب الذي كان قد ارتسم على ملامحهم ، استلقى فوق العشب وحاول ان ينام . ثم جاءت الرسل العربية من جديد بكلمات موجزة ، فقال أحدهم ان « السلطان » كان مريضا وانفصل عن المعسكر في وقت متأخر ، وأكد آخر أنه لم يعد بعيدا ، وقال ثالث انه قريب جدا ، ولكنه حدث له ما اعاقه . فاستقبلهم بيجو بجفوة وغلظة ، واراهم كتائبه ومدفعيته ثم أعادهم .

وكان العقيد كومب (1) أخطر شخصية بين الحضور من الضباط ، لا من حيث المرتبة طبعا ، ولكن من حيث الموهبة والخلق . فقد كان حلو الشمائل ، طيب المعشر ، واضح الهدف ، متحمس لمجد فرنسا الى أقصى حد ، ذا طبيعة بسيطة ، ولكنها مؤثرة . ومع انه كان ينتمي الى حزب احرار بلاده ، وان مذهبه لم يكن تبعا لذلك يتناسب مع مذهب الجنرال العام على الاطلاق ، فان بيجو كان يثق به كل الثقة ، وكانت بينهما صداقة شخصية ، وان اختلفت آراؤهما حول الوضع الراهن . وقد رايت الاثنين منخرطين في حديث حاد . فقد طلب كومب من بيجو الا يدع الوقت الثمين يمضي في تافنة دون عمل ومن غير فائدة ، واذا كانت المؤن لا تكفي للمدة المقررة للحملة ، وهي اربعون يوما ، فينبغي على الاقل مطاردة (العدو) لمدة ثمانية ايام في جميع الجهات . وكان

---

(1) لقي حتفه أثناء الحملة الثانية على قسنطينة · انظر جوليان تاريخ الجزائر المعاصرة ص 141

العقيد يتكلم بحرارة كبيرة ، ويأسف على الملايين التي تنفقها بلاده ها هنا دون فائدة . ولا بد ان يوافقه على ذلك كل انسان عاقل .

اما بيجو فقد نفس عن غضبه وتبرمه الداخليين بصيحات شديدة :

— الام آل اليه امرنا بعد ايام قليلة . لقد أرغمنا على الاعتراف بأن الحرب لم تعد ممكنة . ان أوامري لم تنفذ . ولسوف أكون أول من يخوض الحرب . وأنا رجل شهم مثلكم . ولكننا لا نستطيع . واذا انسحب الأمير ، ولم يظهر — فما العمل اذن ؟ آه . ان هذه الحرب لعويصة جدا .

كانت هذه كلمات بيجو . وقد لوحظ عليه تردد مستمر . ولو كانت القيادة بيد كومب لاتخذت الأحداث مجرى آخر .

واخيرا وصل ترجماننا فوق فرس تطوي الأرض طيا ، وقال ان الأمير كان في اللحظة التي تركه فيها قد غادر معسكره مع جيشه كله ، ولسوف يكون من الممكن رؤيته بعد قليل . فعاود بيجو ابتهاجه وانسطت أساريره.وجلس رمزي، وقد أخذ التعب عليه أنفاسه ، فوق حجر ، وراح يكتب بعض السطور التي أملاها عليه بيجو كاضافة لمسودة المعاهدة (2) . ومر الوقت في أثناء ذلك دون أن يمكن رؤية الأمير . ورأينا عن بعد بعض فرق الخيالة العربية تحتل بعض الجبال .

وكانت الساعة تشير الى الخامسة مساء ، فقرر الجنرال ، وقد كان يرغب في العودة بفرقه في اليوم نفسه الى المعسكر ، ان يذهب بنفسه لملاقاة الأمير ، فركب جواده وانطلق اليه مسرعا ، وسار معه بعض الضباط وخمسة جنود من ذوي الاسلحة الخفيفة وعدد من السباهية . وقد انضممنا أنا وشتورلر (3) الى مرافقيه . فكان عددنا على الجملة حوالي عشرين شخصا .

---

(2) يذكر فاغنر (ج 2 — ص 236 وما بعدها) ان المفاوضات كانت قد بدأت بعد الحملة على مدينة معسكر ، ولكنها لم تؤد الى نتيجة ، فاستأنفها بيجو ووكل بذلك اليهودي بن دران ، ثم أساء به الظن باعتباره أحد ثقات الامير ، فعزله وعين مكانه عربيا من العاصمة يدعى سيدي حمادي بن سقال .

(3) نقيب سويسري أيضا ، كان ينتمي مثل موزالت الى الفرقة السويسرية لملك نابولي ، المرجع السابق ص 249 .

ولعل سبب تاخر الأمير عبد القادر لم يكن يرجع الى عدم الثقة أصلا ، وانما الى الأنفة والشمم . فقد أدرك أنه لا يستطيع أن يظهر أمام جبهة العدو بصفته سلطانا ، وانما الذي يستطيعه هو أنه سيقف مع الجنرال الفرنسي على قدم المساواة . فحاول أن يتجنب هذا بدافع الانفة التي جبل عليها بقدر ما هو بدافع الفطنة وأصالة الرأي ، لانه لم يكن يريد أن يتنازل عن شيء من كرامته أمام نظر عربه .

وبعد مسيرة في طريق وعر تقريبا ، استغرقت ثلاثة أرباع الساعة ، خيل الينا أننا نرى الأمير فوق منحدر تل بين فرسانه ، ولكنا كنا متوهمين . اذ لم نلمح سوى فرسان ، ظهروا فرادي ملوحين بمناديل بيضـــاء . واخيرا قدم البوحميدي (4) ، شيخ قبائل تافنة ، وأكد للجنرال أن بامكانه أن يلتقي بالأمير بعد قليل . وأحاط بنا من الجانب ومن الخلف بعض الفرسان العرب ، فبدا موكب الجنرال يضطرب ، وارتفعت أصوات كثيرة هاتفة :

ــ اننا نعرض انفسنا للخطر ، ايها الجنرال ــ فلنقف !

فكان جواب بيجو في تلك اللحظة :

ــ لم يعد هناك وقت لذلك ، ايها السادة !

وكان على حق ، لانه لم يبق وقت للحذر ، ذلك أن عددا كبيـــرا مـــن الفرسان كان قد أحاط بنا من كل جهة ، ولأذكر بهذه المناسبة أن مظاهرتهم تلك لم تكن تدل على أي عداء . فقال البوحميدي ، الذي لاحظ ما اعترى الحاشية من اضطراب :

---

(4) محمد البوحميدي أحمد أبطال المقاومة الوطنية ، عرف بالصدق في الوطنية والحلم في المعاملة والاخلاص في العقيدة ، وأصله من قبيلة ولهاصة . وقد جمع بين العلم والبطولة فلم يكن يحب شيئا مثل حبه لكتبه وسلاحه . وكان الامير قد أرسله سنة 1847 الى سلطات المغرب عبد الرحمن بن هشام ، فمات بأمر هذا مسموما . وللامير مقطوعة في وداعه تحدث الاخ الشاعر صالح الخرفي عن ظروفها التاريخية (المجاهد عدد 368 ، 21 ماي 1947 ــ ص 22 33) استنادا الى ما كتبه ف. باتورني المجلة الافريقية (عدد 40 ــ 1896) ويحتوي هذا العدد على صورة للمقطوعة .

ـــ اطمئنوا ، ولا تخافوا شيئا .

فاجاب بيجـــو :

ـــ اني لا أعرف الخوف . فقد تعودت على منظركم . الا أني أجد أنه ليس من اللائق برئيسك ان يتركني أنتظر مدة طويلة وآتي الى هذا المكان البعيد .

فقال البوحميدي :

ـــ انه هناك . وستراه بعد حين .

وكان للطريق هنا منعطف ، وفجأة راينا الامير أمامنا . كان الامير يمتطي صهوة جواد اسود ، والى جانبه فرقته الموسيقية الزنجية ، وحوله جمع من الرؤساء ، وقد امتطوا بدورهم جيادا رائعة ، وخلفه جيش مـــن الخيالـــة والمشاة ، اتخذ مواقعه على منحدر التل بصورة بهيجة .

وعندما لمح بيجو الأمير ، دفع جواده بضع خطوات نحوه ، داعيا اياه بلطف أن يفعل مثله . الا أن الأمير لم يعبأ بهِ ، بل حمل جواد الصحراوي البديع على الرقص والتهادي ، وأظهر في أثناء ذلك مهارة فائقة في الفروسية فكان ذلك الجواد الناري يثب اربعة او خمسة اقدام طورا ، ويسير طورا آخر على قدميه الخلفيتين بضع دقائق ، وكان ينفخ ويزعر بصوت مسموع ، وعرفه الطويل يلأمس الأرض . وكان الشيوخ والرؤساء خلفه ، وعددهم حوالي مائة وخمسين أو مائتين ، قد تركوا جيادهم أيضا تتهادى وتشب وتثب .

واذ لم يرد الأمير السير لملاقاة الجنرال ، فقد وثب بيجو فوق جواده اليه ومد يده لمصافحته ، فمسكها الأمير في عزة وانفة وبصورة مهينة لجنرالنا . ونظر بعضنا الى بعض ، كنا في موقف حرج ، واصفرت على الخصوص وجوه المسؤولين ، لانهم خشوا ان يكون في الأمر خدعة . وكان الجنرال بيجو قد نزل عن جواده ، ونزل الأمير كذلك واستلقى على العشب من غير ان يدعو الجنرال اليه . اما نحن فان الامير لم يتكرم علينا بنظرة واحدة . وقد بدا عليه انه يحتقرنا احتقاره للكلاب . فجلس الجنرال ايضا الى جانبه دونما تكلف .

وجلس قربه ترجمانه رمزي ، بينما جلس قرب الامير الميلود بن عراش (5) ، آغاه ونائبه . هذا في حين بقي مائة وخمسون رئيسا ، واغلبهم من المرابطين والشيوخ ، فوق جيادهم ، مشكلين صورة هلال كبير حول المجموعة ، واقترب اثنان منهم ووقفوا بيننا وبين رئيسهم ، ولعلهم فعلوا ذلك ليسرعوا الى نجدة « سلطانهم » ، فيما اذا عن لنا التضحية بحـياتنا للقضاء على « العدو » الخطر . . .

كان الأمير قصير القامة ، نحيف البنية ، جبهته بارزة جدا ، وفمه كبير وكانت أسارير وجهه تنم عن الورع والتقوى ، التي ربما تكون مصطنعة بعض الشيء . وكان في ذلك اليوم يرتدي أبسط رداء ، وهو عبارة عن برنوس أسود منسوج من شعر الجمل (6) . ولم نعرف من نتأمل من بين أفراد تلك المجموعة

(5) تحدث فاغنر (ص 355) عن الميلود بن عراش وذكر عنه أنه لم يقم باي دور في الحرب ، وكان معروفا بقلة الشجاعة والخوف من الحرب ، وكان الى ذلك فارسا رديئا رغم انتمائه الى قبيلة غرابة المحاربة . ولكنه يعتبر أفضل شخصية سياسية لدي الامير عبد القادر ، وهذا ما جعل الامير يسند اليه القيام بجميع المهمات السياسية ، فوكل اليه ايصال الهدايا الى ملك فرنسا . وكان الامير يثق به كل الثقة قبل قيامه بتلك المهمة ، الا أن الميلود بن عراش فقد ، كما يقال ، رضى الامير عنه منذ ذلك الحين . ويجدر بي أن انبه هنا الى أن ما ورد في تحفة الزائر (ص 47) يدل على أن الامير قد رضي عن ابن عراش بن ان اعتذر اليه هذا عن تدخله في مسألة تعديل معاهدة تافنة .

(6) زار مالتسان الامير عدة مرات ، وكانت آخر زياراته له سنة 1860 ، فكتب بعد هذه الزيارة يقول (ثلاث سنوات في شمال افريقيا ، ج 1 ص 284) : « لقد اصبح الامير الان مواطنا مسالما من مواطني دمشق ، كما أصبح ضخم الجثة . وقد حاولت عبثا العثور على تعبير حربي حاسم في ملامح وجهه . حتى اللباس السوري ، الذي كان يرتديه ، لم يكن ملائما له ، وكان عبارة عن قفطان متعدد الالوان ، بدا فيه أشبه بتاجر ثري كسول من تجـــار البازار . أما ذلك البرنوس ، الذي كان يحمله سابقا والذي لم يكن يختلف في رثاثته عن ثياب البدو ، فقد ودعه يوم ودع مشاريعه الحربية . ومع ذلك فانه لم يتجرد عن طبيعته الى درجة يقنعني عن طريقها بأنه قد أصبح يحب الفرنسيين . ذلك أنه لم يكن يحتفظ بذكرى طيبة الا للامبراطور نابوليون الذي أعاد اليه حريته . لقد قال لي باللغة الجزائرية : « السلطان ابوليون راجل (رجل) ، لفرنسيس لخرين (الاخرين) الكل كلاب ! »

الغربية ، الأمير عبد القادر ، شيوخه ، هياتهم الملكيـــة او ارديتهم الطويلة المتماوجة . اما أبهى منظر لهم فقد تمثل في الجيش العربي ، الذي كان يغطي ظهور الجبال كلها على شكل رهيب ، وكان قوامه ثمانمائـــة فارس ومثلها مشاة . كان الصمت شاملا في باديء الأمر ، ثم بدأت المفاوضات (7) .

قال بيجـــو :

— ان الشرط الاول في المعاهدة يتعلق بالاعتراف بسيادة ملك فرنسا في افريقيـــا .

فصـــاح الأمير :

— ماذا تقول ؟ وبقية امراء افريقيا ، مـــراكش وتونس ، هـــل يجب عليهم أن يعترفوا بسيادته ايضا ؟

فأجاب بيجو :

— وماذا يعنيك انت من هذا الأمر ؟

فسكت الأمير ، وقريء الشرط الثاني ، وحينئذ طلب بيجو رهائن كضمان لتنفيذ نصوص المعاهدة . فقال الأمير :

— في هذه الحالة ساطلب منك انا ايضا رهائن . ينبغي أن تكفيكم عقيدة العربي وتقاليده . فلم يسبق لي ان نقضت عهدي . اما جنرالات فرنسا فانهم لا يستطيعون أن يدعوا شيئا كهذا .

وكرر الأمير الجملة الأخيرة عدة مرات . فأجاب الجنرال :

— اني اثق بكلمتك وارهن نفسي على اخلاصك لدى ملك فرنسا . اني اعرض عليك صداقتي الشخصية .

---

(7) تمت المعاهدة بعد هذه المفاوضات الثانية ووافقت عليها الحكومة الفرنسية بعـــد حوالي اسبوعين رغم صعوبة هضمها لها . فاستغلها الامير للقضاء على الفوضى وارساء قواعد دولته الفتية بعد ان اصبح ذلك ضرورة محلة .. وشروط المعاهدة معروفة . انظر الجزائر العربية ، ص 80 ، الجزائر في مرآة التاريخ ص 191 ، تحفة الزائر ص 280 و 283 .

— اني اقبل صداقتك ، ولكني احذر الفرنسيين من أن يعيروا المتآمرين اذنا صاغيـــــة .

— ان الفرنسيين لا ينقادون لاحد . ولن يكون في الجرائم المفردة تهديد للسلم، الا ان الأمر سيكون كذلك فيما اذا لم تنفذ المعاهدة أو يرتكب عدوان خطير . إما ما يتعلق بالجرائم المفردة ، فينبغي أن يخبر احدنا الآخر بها وأن نعاقب المذنبين ، كل من جهته .

— حسن جدا . اخبرني بذلك . فان المذنبين لن يفلتوا من العقاب .

— أوصيك بمعاملة الكوله اغلى (الكراغلة) بتلمسان معاملة حسنة (8)

— كن مطمئنا . سوف يعاملون معاملة الحضر .

وسال الأمير مرة ثانية عن اسعار الأسلحة والذخيرة التي ستسلم له ، فانزعج الجنرال وهتف بترجمانه :

— يا للشيطان . قل له بانا لسنا أطفالا . ستكون له بثمن الجيش .

وبدا الرضا على الأمير . وبعد فترة صمت سال بيجو :

— هل أمرت بأن تعود المعاملات التجارية مع مدننا الى ما كانت عليه ؟

فكان جواب الأمير :

— لا . ان ذلك لن يحدث الا بعد أن تسلم لي مدينة تلمسان .

— ولكنك تعرف أني لا أستطيع أن أسلم لك مدينة تلمسان الا بعد موافقة ملكي على المعاهدة .

— اذن فليس لك تفويض بعقد معاهدة ؟

— بلى . ان ذلك مفوض لي ، ولكن المعاهدة يجب أن يصادق عليها . وهذا امر ضروري كضمان لك . فاذا عقدت المعاهدة من طرفي فقط ، فان في امكان خلفي الغاءها . أما اذا وافق الملك عليها فان خلفي مجبر ايضا على احترام نصوصها .

((8) كان للكراغلة معاصرين في قلعة المشور ، وقد انضموا الى الحامية الفرنسية هناك ، على الرغم من أن كلوزيل كان قد الزمهم بدفع ضرائب باهضة انظر لافنر ج 2 ص 231 .

ـــ اذا لم تسلم لي مدينة تلمسان ، فانه لا فائدة لي من عقد المعاهدة . وعلى هذا فانها ستكون هدنة لا غير (9) .

ـــ حقا ربما تكون مجرد هدنة ، ولكن فيها كسبا لك وحـــدك . الا تخاف مدفعيتي ؟ واذا دمرت محصولاتك وحرقتها . . . ؟

ـــ ان الشمس هي مدفعيتي التي ستقضي على جيوشك . ولك ان تحرق على اية حال جزءا من محصولاتنا . فسوف نجد القمح في مكان آخر . ان بلادنا كبيرة ، ولن تستطيع مطاردتي بطوا بيرك ، لأن الحرارة والأوبئة سوف تهلكها . وحيثما ظهرت انسحبنا امامك ، ثم لا تلبث ان تنتهي ذخيرتك . أما نحن البدو الرحل ، فاننا سنجد في كل مكان ما يكفي لغذائنا .

ـــ اعتقد ان العرب لا يفكرون مثلك . وقد شكرني بعضهم لاني لـــم أتعرض لتخريب حقولهم .

فضحك الامير باحتقار ، ثم ساله كم يلزم من الوقت لوصول الموافقة الملكية

فاجابه بيجو قائـــلا :

ـــ ثلاثة اسابيـــع .

ـــ هذه مدة طويلة .

ـــ انك لن تفقد شيئا في خلال ذلك .

فاقترب بن عراش وقال للجنرال :

ـــ ان ثلاثة أسابيع مدة طويلة . اننا لن ننتظر اكثر من اسبوع أو أسبوعين .

فصاح بيجـــو :

ـــ هل يمكنك انت أن تصدر اوامرك الى البحر ؟

ـــ اذن لن تستانف العلاقات التجارية الا بعد وصول موافقة ملكك .

---

(9) هذه العبارات تشبه الى حد كبير ما ورد في تحفة الزائر ص 281

وقد روى لي رمزي (10) أن بيجو قد قال للامير في أثناء المحادثة :

ــ ان أسرتنا أو قتلتنا ، فانك لن تكسب من ذلك شيئا ، ذلك ان هناك بعد في فرنسا ألف جنرال مثلي .

وبعد مداولات استغرقت ثلاثة أرباع الساعة ، نهض بيجو بينما ظل الأمير مضطجعا دون أن يهتم به أدنى اهتمام . فنظر اليه مندهشا ، ويداه معقودتان على صدره ، ثم مسك يده فجاة وأنهضه ، فابتسم الامير شاكرا لطفه هــذا وانتصب على قدميــه .

وعندما قرأ الجمهور الفرنسي مجرى هذه الحادثة ، ظن أن مسلك الجنرال كان يتسم بالشهامة والنبل (11) . ولكن انهاضه للامير قد ترك في الواقع اثرا معاكسا في نفوس الجزائريين . فقد اعتبروه اهانة للجنرال الفرنسي ، خدمة الخدم من نوع خدمة الامبراطور فريدريش برباروسا الذي مسك الركاب للبــابــا .

حين انتهت المحادثة كانت الساعة تشير الى السادسة مســاء ، وكانت الشمس تغطيها السحب . فوثب الأمير ، دون أن يلتفت حوله ، فوق صهوة جواده وصعد الجبل ركظا ، وتبعه شيوخه وعددهم مائة وخمسون . وفي تلك اللحظة ارتفعت فجاة هتافات طويلة للجيش الشبحي ، الذي كان الى الآن يشاهد المحادثة من غير حركة ، وتدحرجت ابتداء من سفح الجبل مندفعة الى اعلى كموجة البحر . وبعد ذلك بقليل انطلق من بين السحب صوت الرعد الخافت ،ردد صداه الجبل ، فزاد من غرابة ذلك المشهد .

واقبل علينا بيجو وهو يقول :

ــ ياله من رجل أنوف . ولكني ارغمته على النهوض !

---

(10) ينبغي الاشارة الى ان المؤلف يكتب هذا الاسم في النص الالماني رامشا ، ولعله تحريف لما ذكرته .

(11) أشار فاغنر (ص 248 ــ 49) الى أن الجرائد الفرنسية نشرت في ذلك الحين قصة المقابلة بصورة ناقصة ، لان المسؤولين الفرنسين حرصوا على أن لا يطلــع الجمهــور الفرنسي على أجوبة الامير وملاحظاته اثناء المفاوضة .

ولعله احس في اعماقه بأن العرب لم ينظروا الى سلوكه على انه عمل بطولـــي .

وفي طريق عودتنا كانت تعتمل في نفوسنا مشاعر غريبة .كنا مما شاهدناه كالخدرين وظننا اننا في حلم . وكان الجنرال نفسه مطرقا صامتا ، وجواده يسير به . وعندما وصلنا الى المعسكر التف حولنا مائات من الضباط الفضولين وحسدونا على ما شدهنا ، فوجب علينا أن نروي لهم ما حدث . وكان مصطفى بن اسماعيل (12) جالسا على العشب ، وقد غام وجهه وتدلى رأسه الجميل المحترم فوق صدره . كان يشبه نبيا يحتضر . وعندما سمع بأن كل شيء قد اصبح الآن على ما يرام وان الحرب مع الأمير لن تستمر بعد ، قال بنبرة ملئت مـــرارة :

ـــ لم يبق لي الآن ان اسافر الى مكة واكفر في الكعبة عن الثقة التي منحت الفرنسيين اياها .

---

(12) مصطفى بن اسماعيل احد الاذناب المعروفين أيام الاحتلال ، واصله من قبيلة الدوائر . وكان في العهد التركي يحتل منصب اغا في منطقة وهران . وقد تصدى لمحاربة الامير . فلما هزمه الامير هرب الى مشور تلمسان وسلمها الى الفرنسيين سنة 1836 . ومنذ ذلك الحين باع ضميره لهم وراح يطعن وطنه في الصميم ويخون اخوانه على شكل مخجل . كل ذلك نظير لقب مارشال أو راتب مناسب لهذه الرتبة . ويذكر فاغنر (ص 353) أنه كان آنئذ شيخا عجوزا في حوالي الثمانين من عمره وأنه كان أكثر تحمسا لمحاربة الامير من الجنود الفرنسيين ، مع أن الامير سبق له أن شمله بحمله وشهامته بعد انتصاره عليه في احد معاركه الاولى معه .

الفصل السابع

الامير عبد القادر

لموريتس فاغنر

عمر الأمير الآن (سنة 1938) 32 سنة ، وهو قصير القامة ، نحيف الجسم ، ولكنه جميل المظهر ، شديد بياض البشرة . عيناه زرقاوان يخالط زرقتهما لون رمادي ، وهما تشعان في جمال ، خاصة حين يتكلم بحوية . وله لحية وشارب شديدا السواد ، غير انهما ليس كثيفين ، وقد كسر نصف احد أسنانه الأمامية ، أما أسنانه الباقية فليست جميلة كما هو الحال عند اغلب العرب . صوته عميق حلو النغمة ، والحماس الديني ابرز ملامح الأمير ، وعلى جبينه ووجنته ويده اليمنيين وشم صغير . أما ثيابه فانها في منتهى البساطة ، فهي اقل جمالا من ثياب بقية الشيوخ . ويرتدي الأمير عادة حائكا ابيض ويلبس فوقه برنوسا مصنوعا من شعر البعير ، ومن الصعب أن يصل الانسان الى معرفته بين جمع غفير من العرب ، الا أن سلاحه وسرجه يمتازان بنوع من الفخامة .

وحياة الأمير بسيطة كثيابه ، فهو يسكن ، منذ أن هدم قصره في معسكر ، خيمة عادية لا يتركها الى قصره الجديد في تقدمت الا لمدة قصيرة . وطعامه زهيد ، ولا يخشى الأمير الجوع ولا التعب ، ويعتبر أحسن الفرسان في بلاد الجزائر وفي المعركة يحمل فوق رأسه سمشية مذهبة ، وعلى جانبي فرسه يسير عبيده من الزنوج . والعرب يجلون ام الأمير ، واسمها الزهرة ، غاية الاجلال ، وذلك امر غير عادي بالنسبة لامراة مسلمة . فهذه المراة العجوز ، التي كان سيدي محي الدين يفضلها على غيرها من نسائه لهدوئها ورزانتها ،

كثيرا ما تحدث عنها من رآها من الاروبيين باعجاب كبير . وكانت تعرف أوضاع البلاد وظروف ابنها مع الكفار معرفة جيدة ، دون ان تخفي كرهها الشديد لهم ، وقد اكسبها عطفها على المرضى والفقراء حب جميع التعساء والاشقياء .

لقد رفض الأمير عبد القادر ان يتبع طريقة ابيه وغيره من الشخصيات البارزة فيما يتعلق بامر الزواج الشرعي ، فقد تزوج هؤلاء بدون استثناء تقريبا اربع زوجات ، وهو العدد الذي سمح لهم به الشرع ، ولكن الأمير عبد القادر لم يتزوج باكثر من امراة واحدة ، وهي امراة وديعة لطيفة جميلة مكتئبة ، تعيش في عزلة ولا تهتم بغير أطفالها . وزوجها يحترمها ولكنه يظهر لها القليل من الحنان ، فغالبا ما تمر أشهر كثيرة دون ان يراها ، ومع ذلك لم يبدأ اية رغبة في أن يتزوج غيرها رغم الحاح اقربائه عليه وعلى الرغم من أن مصاهرة الشيوخ من ذوي النفوذ كانت تعود عليه بالخير والنفع الكثير . وقد أبطل الأمير أحكام الاعدام المترتبة عن الخيانة الزوجية ، وان ظل يعاقب عليها بشدة وكانت أبرز خصائص الأمير عفته .

وللأمير عائلة ، تتكون ، بالاضافة الى زوجته ، من بنتين ، احداهما تقرب من سن البلوغ ، والأخرى في الثالثة من عمرها . أما ابنه فقد توفى وهو في الرابعة من عمره ، وذلك في شهر أكتوبر سنة 1837 ، وقد تحدث الدكتور فانير ، طبيب القنصلية الفرنسية في معسكر ، عن الظروف التي مات فيها الطفل ، وكان قد عالجه ، فذكر أن افراد العائلة فزعوا عندما راوا الابرة ، اذ انهم ظنوها مدفعا صغيرا ، واعترض مرابطو الأسرة على استعمالها ، غير أن الزهرة وأم الطفل المريض أصرتا على أن يتم كل ما يامر به الطبيب ، ولكن الطفل لم تقدر له النجاة رغم كل الوسائل التي استعملها الطبيب . وظلت الأم معلقة العينين بابنها الحبيب المحتضر الى ان لفظ آخر انفاسه ، ثم التجات الى وحدتها ، وامتنعت عن الأكل واستخفت بالعزاء . وكان الأمير في تاكدمت عندما وصله خبر موت ابنه فقال ((**هذه مشيئة الله**)) ، ثم صلى عليه ونسي آلامـــــه .

ـ وكان الأمير تقيا ورعا متحمسا لدينه ، وكان يلقي الخطب في بعض الاحيان وقد القى افضل خطبه له في جامع معسكر ، فمكنته هذه الخطبة من ان يضم

قبيلة بني عامر الى صفه بعد ان كان شيوخها قد قرروا الخروج عليه ، فاصبحوا منذ ذلك الحين من اخلص اتباعه .

ولم يكن الأمير يحمل الشعب على التعصب الشديد ، وبرهن اكثر من مرة على أنه يريد مسالمة الكفار ، فاستضاف من زاره من الرسل الفرنسيين والرحالين واكرمهم وعاملهم بلطف ، ولم يكن يرى ما يحول بينه وبين ان يتحدث معهم في كل شيء حتى في المواضيع الدينية . وكان يتكلم بحويية ، ولكنه لم يكن يحتد أبدا ، وحديثه أحيانا في منتهى الروعة ، حيث كانت الكلمات الجميلة والافكار البديعة تنبعث من فمه اخاذة .

عندما زاره الضابط الليفرو ، الذي كان يتكلم العربية بصورة جيدة ، ونصحه ألا يفتر بالحظ الذي واتاه حتى الآن ، اجابه الأمير : « **لقد كنت قبل ثلاث سنوات رابع اولاد أبي لا غير ، وكان علي ، حين اقتل رجلا في المعركة ، أن آخذ سلاحه وفرسه لأزيد فيما أملك . وأنت ترى ما أنا عليه الآن . فكيف لا أكون واثقا من نفسي ؟** » وحمل اليه رسول المرشال كلوزيل بعد الاستيلاء على تلمسان رسالة تهديد ، فأجابه الأمير : « **عندما تقف على الشاطيء وترى الاسماك تعوم في البحر ، قد تتصور أنه يكفيك أن تمد يدك لتمسك بها ، ولكنها تنزلق من بين أصابعك كلما خيل اليك أنك قد تمكنت منها ، وعليك بعد أن تلحق بها في أعماق البحر . فاذا كان السمك صاحب البحر ، فان العربي سيظل كذلك صاحب البادية** » .

وعندما حمل صوريون الى الأمير هدايا ملك فرنسا ، استقبله الأمير بحضور عدد كبير من رجاله من رؤساء القبائل ، ولعله اراد بذلك ان يحملهم على الظن بأن ملك فرنسا يدفع له الجزية . وقد أثارت الزهريات الخزفية اعجاب الحاضرين ، وكانت تحمل رسوما لآيات قرآنية تم اختيارها بذكاء من تلك الفقر التي تحث على التسامح . وبينما كانت الزهريات تنتقل من يد الى اخرى ، التفت الأمير الى رجاله وقال : « **ألا ترون أن الفرنسيين يعرفون كل شيء ويقدرون على كل شيء ؟** » ثم استدرك ضاحكا : « كلا . انهم لم يجدوا بعد وسيلة ضد الموت . »

وتقدر هذه الهدايا الفرنسية بأكثر من مائة الف . وبعد أسبوع من استيلامها قدم الأمير هذه الهدايا للآخرين باستثناء زهرية وبندقية فضية ، احتفظ بهما لنفسه . أما الباقي فقد انتقل بعضه الى ملكية سلطان المغرب وكبرائه والبعض الآخر الى المشائخ والمرابطين في منطقته وهران والتيطري .

وكان الأمير يسوس رعيته بالعدل ، ولم تقل عمليات الاعدام أبدا بقدر ما قلت في أيامه والجدير بالاعتبار أيضا أنه لم تقع قط محاولة لاغتياله حتى في أيام محنته وهزيمته . وذلك عندما انفصلت عنه اخلص القبائل له ، في حين أن أغلب الدايات كانوا قد انتهوا نهاية دموية ، وأن الداي حسين ، آخر دايات الجزائر ، كان يلازم القصبة ولا يتركها ، وأن الدايات لم يكونوا أبدا يجرؤن على القيام بنزهات من غير أن يرافقهم عدد كبير من الحرس التركي أما الأمير فكان يسكن في خيمة مفتوحة ويسير بمفرده متنقلا بين القرى من غير سلاح وكان يستقبل اينما حل باحترام بالغ وتقدير فائق .

ومعاملته لقبيلة الحشم أكبر دليل على حلمه وشهامته ، فقد خدعوه وخانوه بعد سقوط معسكر ، وحين رجع من تافنة بقوة كبيرة خرج اليه شيوخ هذه القبيلة بوجوه صفراء شاحبة ، فسالهم بصوت رزين : « **لماذا استوليتم على ملكي ، ونهبتهم قصري ؟))** . فاجابه هؤلاء : ((**عفوك . لقد رأينا الكفار مقلبين، ولذلك أخذنا كل ما وجدناه قبل وصولهم . ألم يكن من الأحسن أن نسرق متاعك بدل أن نتركه للكفار ؟))** فعاد الأمير يسالهم : ((**ولكن لماذا سخرتم بي وخنتم عهدي ؟))** أجابوا : ((**لقد خلب الشيطان لبنا ، فظننا أن الله تخلى عنك ، وقد ثبت الآن أنك أحب الناس اليه وأعظم ملوك الأرض . اذا كان الدم يرضيك ، فلك أن تعاقب اكبرنا ذنبا))** قال الامير بلطف مثير للاعجاب : ((**امضوا في سبيلكم ! لقد عفوت عنكم ونسيت ما مضى . لقد أراد الله أن يعلمكم نظامي مرة أخرى . احتفظوا على كل حال بما سلبتموه مني اذا كان لا يعذبكم ما تأكلون من مال حرام . ولكن اياكم أن تعودوا الى ذلك مرة أخرى ، وليكن في علمكم أن ابن الزهرة قادر على أن يضرب من جديد ألف رأس من رؤوسكم))**

ولكنه لم يجد ما يحمله على تنفيذ ما هددهم به ، فقد أخلصت له قبيلة الحشم منذ ذلك اليوم ، ولم يندم الأمير على ما اظهره أمامهم من حلم ورفق

الفصل الثامن

الحياة الاجتماعية في مدينة الجزائر ابان الاحتلال

من الملاحظ أن الباحثين الجزائريين قد بدأوا يهتمون بدراسة ماضي الجزائر ، الا ان اهتمامهم لم يتعد — للأسف — الناحية السياسية . فاذا استثنينا بعض الاشارات العابرة ، فاننا لا نكاد نعثر على كتاب يقدم لنا صورة عن المجتمع الجزائري في العصور المختلفة . ومن ثم بقيت جوانب اخرى من حياة الجزائر لاتزال تنتظر من يكشف عنها ويعنى بدراستها دراسة تفصيلية . فليس في الامكان معرفة مجتمع ما دون معرفة تاريخية . فتاريخ المجتمع هو الذي يبين لنا مقدار نموه وتطوره خلال المراحل التي مر بها ، كما يوضح لنا مدى استجابته لانماط الحياة التي خبرها نتيجة احتكاكه بالغير واطلاعه على نظمه وتقاليده وثقافته .

والقيام بمثل هذه الدراسة يتطلب الاطلاع على ما كتبه الرحالون الاجانب عن المجتمع الجزائري ، وجمع مادتها وتصنيفها ، ثم تحليل نفسية هذا المجتمع على اسس علمية متينة للوصول الى نتائج تتعلق بالمرحلة التي وصل اليها . وقلة المراجع العربية ، او باحرى انعدامها التام ، يبرر الاهتمام بما انطبع في نفوس هؤلاء الاجانب عن الجزائر في فترات تاريخية طويلة او قصيرة ، فحرصوا على تسجيله ليطلع عليه مواطنوهم في حينه ، ونستفيد نحن منه في المراحل التالية ، خاصة وأنه لم يعد هناك ما يحول بيننا وبينه . ففي وسع مؤسساتنا ان تقوم بتصوير مختلف الكتب ، التي تتحدث عن ماضي الجزائر ووضعها تحت تصرف الباحثين والدراسين لياخذ كل منهم ما يقع في دائرة اختصاصه .

وكاتب هذه السطور ليس باحثا اجتماعيا ولا مؤرخا ، ولذلك يكتفي بتقديم الصورة التالية عن المجتمع الجزائري وحياة أفراده ، وتوصيله الى المتخصصين توصيلا أمينا ، اعتمادا على ما كتبه نفس الرحالة موريتس فاغنر ، صاحب الموضوعات الثلاثة السابقة .

القضـــــــاء :

بعد أن يتحدث فاغنر عن المحكمة العسكرية الفرنسية ، ينتقل الى الحديث عن المحكمة الشرعية الاسلامية ، التي كانت تقع في احد شوارع باب الواد الجانبية ، ويصفها بانها لم تكن تقل منزلة عن المحاكم الفرنسية . ثم يذكر أن القاضي المالكي يمثل الجانب الدنيوي بالنسبة للمسلمين في حين ان المفتي الحنفي يمثل الجانب الديني ، ويقول ان هذا المنصب كان يتقلده ايام زيارته للجزائر واقامته بها الشيخ سيدي أحمد بن جعدون ، وهو رجل يبدو عليه الوقار ، ويزيد من رفعة قدره ما يريديه من ثياب فاخرة .

والقاضي المالكي يعقد جلسته في قاعة بسيطة ، تغطي ارضها الزرابي ، ويتميز عن غيره من الحاضرين بعمامته الكبيرة ، التي تحتوي على ثنايا كثيرة غير انه لا يختص بهذه العمامة ، اذ يشاركه فيها رجال الدين من ائمة وعلماء وقراء ومرابطين بالاضافة الى معاونيه من الكتاب والمحررين . ويتخذ القاضي مكانه فوق مقعد عال عند مائدة بيضوية الشكل ، وأمامه نسخة من القرآن مذهبة الجلد ، وعن يمينه وشماله كتابه ، الذين يقومون بتسجيل محاضر الجلسات ، ويتولون اعداد الوثائق الخاصة بعقود البيع وغيرها من الملفات الرسمية ، ويتوجهون بالنصيحة الى القاضي في المسائل التي تشكل عليه . ويوجد في الجزائر من هؤلاء حوالي اثنى عشر كاتبا ، يقومون بعملهم بالتناوب في ايام معينة . ولاغلبهم لحي كبيرة ، ملامح لينة حينا ، ومرعبة حينا آخر ، حسب ما يوجد في طبائعهم ومظاهر هم من فروق (ج 1 ص 62)

وحين يدخل الشاوش او خادم المحكمة المتخاصمين ليمثلا امام القاضي ، يقفان في النهاية الاخرى من المائدة . اما اذا كانا من النساء ، فانه لا يسمح لهن بالدخول الى قاعة المحكمة ، وانما يتحدثن الى القاضي من وراء قضبان نافذة الفناء . وكثيرا ما تكون هذه المرافعات شيقة حتى بالنسبة لاولئك

الذين لهم المام قليل باللجة العربية أولا معرفة لهم بها على الاطلاق ، خاصة حين يكون النساء طرفا في النزاع . ان براعتهن في الحديث ، والحركات التي تصدر عنهن في اثناء ذلك ، وهدوء القاضي ، الذي يترك المتخاصمين يتراشقان بالكلمات دون أن يبدى حركة تدل على سأم أو ملل ، كل ذلك يكون مشهدا متناقضا لا مثيل له . وليس هناك حادث يمكن أن يخرج القاضي عن هدوئه ، فهو يستمع الى الاصوات المتراشقة مطرقا في هدؤ تام ، ويلقى على أحد المتخاصمين بين الحين والآخر سؤالا ، ويستنطق الشهود ان وجدوا ، ثم يصدر حكمه في القضية بكل رزانة ووقار ، فيقبل حكمه دون أن يبدى أحد الطرفين رغبته في استئناف الحكم . ينحني الخصوم لتقبيل يده قبل الحكم وبعده ، وينفذ الحكم عادة في الحين وفي المكان نفسه .

ويعاقب المذنبون في الغالب بالضرب على الارجل ، وهم يفضلون الفلقة على السجن ، وقد حاولت الحكومة الفرنسية أن تبطل هذا النوع من العقاب ، الا انها لم تلق أي تاييد من طرف الاهالي ، ولم يكن في وسعها أن تدخل هذا الاصلاح الانساني الا بموافقتهم . وكان لديها مشروع معقول ، ولكنها لم تجد آذانا صاغية ، ولا عثرت على من يتفهم الغرض الانساني الذي كانت ترمي اليه . والفرنسيون ــ والشعور بقيمة الانسان عندهم في رأي فاغنر ، اكثر عمقا وأشد قوة منه عند بقية الشعوب الاوروبية بكاملها ! ــ يشعرون بالغضب العنيف لمجرد التفكير في الاهانة الجسدية ، وهو شعور يدل دائما على مدى ثقافة شعب من الشعوب ! اما الاهالي فانهم لا ينظرون فيه الا الى الالم الجسمي ، لان المذنب تبقى كرامته محفوظة بعد أن ينال العقاب الذي يستحقه . وكان هذا النوع من العقاب مستعملا في ايام الداي أيضا ضد أي موظف ، ولو كان وزيرا ، فاذا ارتكب هذا الوزير ذنبا ، فانه ينال عقابه بالفلقة ، ثم يعود الى اهله واحبابه ، ليجد مشاعرهم نحوه كما تركها .

ذلك ان هذا العقاب لا يلصق به أي عار . اما دخول السجن فان الجزائري كان يخافه كل الخوف ، لانه يبعده عن اسرته من جهة ، ويحول بينه وبين واجباته الاخرى من جهة ثانية ، وبالتالي فانه لم يتعود مثل هذا العقاب . واقسى العقوبات بالنسبة له هي الغرامة المالية . فحرصه على جمع المال لا يسمح له بدفع اية غرامة مهما كان مبلغها . فهناك من الجزائريين من يفضل

ان تؤخذ قطعة من لحمه على ان يدفع شيئا من ماله . ومن اجل هذا رفضت الاقتراحات التي قدمها السيد « لورانس » في هذا المجال بشدة ، بحيث ان مشروعه لم ينل صوتا واحدا . لهذا قررت الحكومة الفرنسية الابقاء على قوانين الاهالي القديمة ، التي لم يكونوا يحسون بثقلها الا بقدر ما يحس الحلزون ببيته ، وتركت أمر ذلك للوقت والاحتكاك بشعب متحضر ، فلعل ذلك يحملهم على ان يطلبوا تغيير ذلك بانفسهم (62/1 — 66) .

الاســـــواق :

وتوجد في الجزائر بعض الاسواق ، يعرض فيها الغرباء عن المدينة بضائعهم وهي لا تشبه تلك الاسواق الضخمة ، التي كانت موجودة قديما في بغداد أو طهران ، والتي تحدث عنها المؤرخون العرب . ان اسواق الجزائر لا يمكن ان تقارن حتى باسواق ازمير او القسطنطينية ، مع أن هذه ليست لها ايضا تلك الفخامة التي عرفتها الاسواق القديمة والتي تمثلت في المنتوجات الشرقية الرائعة . فاسواق الجزائر فقيرة بجانب تلك الاسواق ، وهي عبارة عن دور تشبه الدور العربية ، مع فارق واحد وهو أن جانبي الفناء يحتويان عـلى حجرات ، الواحدة منها منفصلة عن الاخرى . ولكل سوق طابقان أو ثلاثة طوابق وغرف كثيرة .

والعادة المبتعة منذ القديم هي أن الاجنبي او الجزائري او اليهودي يكتري في السوق محلا أو عدة محلات بمجرد حصوله على رخصة بذلك ، ويعرض في ابوابها بضاعته . ولم يكن يعدم من يزور محله ، الا ان زواره كانـوا يكتفون بتقليب البضائع ، وقلما يشترون شيئا منها . فالتجارة لم تكن في يوم ما بالجزائر مربحة ، ولم تزدهر ابدا مثل ازدهارها في بقية العواصم الاخرى بالبلدان المتأخرة ، فقد كان الثراء في الجزائر بمثابة الحكم بالاعدام . وكانت للجزائر اسواق تحتوي على اكثر من اربعين محلا ، الا ان القسم الاكبـر منها ، بل اجملها واجدرها بالاعتبار قد هدم ، وقامت في مكانها محلات ودكاكين تجار أروبيون . وتوجد منها الآن دكاكين لا تقل جمالا عن دكاكين مدن من الدرجة الثانية مثل طولون ونيس .

أما دكاكين التجار من الاهالي ، وهي تقع خارج هذه الاسواق ، فانها

صغيرة تافهة ، فليس فيها تنوع في البضائع ، ولا تلفت الانظار اليها الا بشكلها الغريب . هذه الدكاكين عبارة عن ثقوب مربعة ، تغلق في الليل بباب خشبي مهترىء ، ولا تستثنى منها الا الدكاكين الموجودة في شارع الديوان ، لان بضائعها متنوعة ومنظمة بصورة تدل على ذوق اصحابها ، وهم في الغالب من الكراغلة . وبضائعها على العموم من الصناعات المطرزة بالذهب ، مثل الخفاف والمحافظ وادوات الزينة الخاصة بالاسلحة وغيرها ، وهي مصنوعة في الغالب من القطيفة الخضراء والحمراء ، ويغطيها طلاء ذهبي كثيف ، تبهر العين بفخامتها اكثر مما تبهره بجمالها .

اما بقية البضائع فتتكون في اغلب الاحيان من الروائح والعطور المستخرجة من الورد والياسمين ، ومن المصنوعات القطنية المحلية ، التي تدل على ما بذل في نسجها من جهد ، وهي باعتبارها مصنوعات يدوية لا تضاهي طبعــــا المنسوجات الاروبية الآلية في جمالها ولا في اسعارها . وكثير من الاشياء المصنوعة من خيوط الصبر ، مثل اكياس الصيد ، وزكائب السيدات ، واحذية الاطفال وغيرها تهم الانسان لغرابة المادة التي صنعت منها . واصحاب هذه الدكاكين من الكراغلة والحضر اثرياء في اغلب ألاحيان ، ويقومون بشراء هذه المصنوعات من الطرازين ومن بعض الحضريات . وتجد بضائعهم هذه اسواقا رائجة في اروبا ، فلم يحدث أبدا أن سافر عسكري فرنسي الى بلاده دون أن ياخذ لاصدقائه ومعارفه اشياء كثيرة من الصناعات الاهلية ، التي تروق العين بروعة اشكالها والوانها (1/67 — 68) .

المقــاهي :

وينصح فاغنر المسافرين بزيارة المقاهي العربية ، التي يزيد عددها في القسم الاعلى من المدينة فقط عن الستين ، ويذكر انه كان يقضي كل امسية في واحدة منها دون أن يندم على الوقت الذي قضاه فيها ابدا . ويعتبر المقاهي من الاماكن التي تتيح للاجنبي أن يتعرف على الشعب ، ويتعلم لغته ، بل لا يوجد بالنسبة له مكان يتعلم فيه التعابير الشعبية مثلما يتعلمها في المقاهي .

ويشير الى أن الاهالي لا يتحدثون فيها كثيرا ، الا ان الحضر اكثر استعدادا للحديث منهم في أي مكان آخر ، وفي أي وقت آخر من اوقات النهار . ومن

هنا يستطيع الانسان أن يدرس ملامح رواد المقاهي ، وهم جالسون فوق الارض . فيرى الحضري الهادىء جالسا قرب التركي في لباسه الفخم ، ويليه زنجي أسود كالقار ، يرتدي نفس اللباس ، وبعده عربي من البادية ، طويل القامة ، جميل المظهر ، وقد لوحت الشمس بشرته ، يغطي عضلاته الفولاذية برداء طويل أبيض ، وفوق رأسه عمامة ، يلتف بها حبل من شعر الجمل . وغير بعيد منه قبائلي بقامته القصيرة ونظراته الثاقبة . ثم ميزابي من الصحراء ، وبسكري من بلاد الجريد ، وبينهم فرنسي في لباسه الرسمي ، وقد تعود على حضور جميع الحفلات ، واخذ يظهر جوانب من مزاجه المرح في كل مكان .

ويقع أجمل مقهى عربي في شارع البحرية ، وبه قاعة مقسمة الى مقسمة الى مقصورات ، تستند على أعمدة ، وتتسع لعدد كبير من الزوار . ويضيف فاغنر أنه شاهد مقهى من هذا النوع في أواخر سنة 1836 ، ولكنه اضيق ، وكانت تقع في شارع لالاهم ، وقد اصبح كلاهما اثرا بعد عين . فقد اشتراهما الاوروبيون وأقاموا مكانهما بنايات على الطراز الفرنسي ، وقضوا من مقابل ذلك على جانب كبير من اصالتها الشرقية ، فليس هناك اليوم مقهى واحد يشبه المقاهي القديمة .

ان مقاهي اليوم مظلمة مستطيلة الشكل ، ولا تحتوي على عرصة واحدة ، وبها صفين من المقاعد الحجرية ، تغطيها حصائر من سعف النخيل ، ويجلس فوقها الرواد على الطريقة الشرقية . ويقع المطبخ في منخفض بمؤخرة القبو ، وتقدم القهوة في فناجين مصنوعة من الخزف فوق صحون من الصفيح ، ويوضع فيها مسحوق السكر ، وهي قوية الطعم الى حد ما ، ولكنها لذيذة ، وتكاد رواسب البن تملأ نصف الفنجان . ويقدم للمرء معها غليون احمر ذو قصبة طويلة ، وتبغ من النوع الممتاز ، وثمن ذلك كله سنتيم واحد ، ولا يتصور المرء أن هناك متعة أقل ثمنا من هذه .

ويجلس صاحب المقهى عند المدخل في وقار ، دون ان يهتم بمحله الكبير ، ويستقبل الزائر الاوروبي قائلا ((**مساء الخير يا سيدي**)) وأخاه في الدين « **وعليكم السلام** » ثم ينادي في اتجاه القبو ((**جب قهوة ــ جب**

سبسي !)) والطباخ من السود عادة . أما الندل فهم من ابناء الحضر ، ووجوهم شديدة البياض موردة ، وفوق رؤوسهم الطيقة قلانس حمر ، البستهم في الاماكن التي يكثر فيها الرواد نظيفة وفاخرة في بعض الاحيان ، ولا تتجاوز أعمارهم السادسة عشرة ، وقد تركت الاعمال اليدوية آثارها على ملامح البعض منهم .

ولا تخلو المقاهي الكبيرة من الموسيقي في أي يوم من أيام الاسبوع . ومكان الجوقة في العادة قرب المطبخ ، مما يجعل اعضاءها ينظرون الى القدور التي يتصاعد منها البخار ويستمدون منه الحماس . وتتكون الالآت التي يستعملها الفنانون الجزائريون من الرباب والنايات والقيثارات المختلفة والطر ، غير ان الاخير يستعمل في الحفلات التي تقام في الهواء الطلق اكثر مما يستعمل في المقاهي . وتخلو هذه كذلك من الطنبور الموسيقي الصاخبة الخاصة بالاعراس وحفلات شهر رمضان . فرواد المقاهي يفضلون الاستماع الى الموسيقى الرتيبة الهادئة التي تدغدع حواسهم ، وتناسب الاحلام التي يستسلمون اليها في لذة ، وينفرون من الانغام القوية التي تذكرهم بقعقعات السلاح وببطولات الاجداد (68/1 — 70) .

ويقع اكثر المقاهي العربية روادا في شارع الديوان قرب الكنيسة الكاثوليكية ، ويتردد عليه كثير من الاروبيين ، فالقهوة فيه ممتازة ، والمجلس شيق ، والجوقة كبيرة ، وقائد الفرقة عربي عجوز ، وهو عازف بارع على الربابة ، يشد الانظار اليه بغرابة تمثيله الصامت ، واهتزازات راسه ، وحركاته الرزينة الرتيبة . وكان في الماضي أحد أعضاء الفرقة الخاصة بالداى الاخير ، ويمارس العزف في الاعراس الجزائرية منذ ستين سنة ، ولذلك فهو يتمتع باحترام كبير لدى جميع الاسر الجزائرية ، التي تفتح له ابوابها باستمرار فيسمعها انغامه اللطيفة في كل الظروف والاحوال . فيعزف في حفلات الختان ، ويمدهم بالانغام الراقصة في الاعراس ، معتصرا من ربابته انغاما حزينة بهيجة في الوقت نفسه .

ويعثر المرء بين الحين والآخر في مقهى شارع الديوان على عدد من الفتيات الخليعات ايضا ، وهن يرقصن على نغمات الموسيقى او يغنين . اما

صاحب المقهى فهو أخو ابراهيم شاوش ، جلاد الداي ، ويتمتع مثله بمكانة مرموقة عند الحضر ، وله شخصية قوية مثل أخيه الجلاد ، وذو ثروة كبيرة . والحفلات التي تقام في مقهى القسم الاعلى من المدينة اكثر اصالة وصخبا ، خاصة ما يقع منها قرب القصبة . فهناك يقع المقهى اليوناني ، الذي يحاول صاحبه ، ويدعى « سبيزيوطه » اغراء جمهوره باحقر الوسائل،فترى الاهالي ، وكثيرا ما يختلط بهم الاروبيون ، يصخبون فيه ويصرخون مع الموسيقى الصاخبة ، دون فارق ديني أو عنصري ، فيجتمع المسلم ، والمسيحي واليهودي ، والاروبي ، والافريقي ، في اكثر الاماكن عربدة . وتمتزج تلك الاصوات كلها باصوات السكارى من النساء الخليعات اللواتي يتبادلن الاحاديث القذرة مع عدد من رواد المقهى (70/1 — 72) .

التقاليد الدينية :

يتحدث فاغنر بعد ذلك عن بعض التقاليد المتبعة في شهر رمضان وايام العيد الصغير ، فيقول ان الاعلان عن بدء شهر الصيام يتم باطلاق مائة طلقة من مدفع كبير ، أقيم في الميناء ، وليست هذه الطلقات احسانا من جانب الحكومة الفرنسية ، ذلك أن السلطات المدنية تحتم على المسلمين أن يدفعوا خمسة فرنكات لكل طلقة في مقابل هذه التحية . وبعد هذه الطلقات توقد مصابيح كثيرة فوق منارات المساجد ، تضيء الهلال الذي يتوج رؤوسها . ويقف المؤذن بثيابه الجميلة وسط اضواء المصابيح ، ويرفع العلم الابيض ثم يدعو المؤمنين الى الصلاة . وليس هناك مسلم راشد لا يسرع الى تلبية النداء ، فلا الشيخوخة ولا الثروة تحول بينه وبين المضي الى بيت الله . وكانت المساجد ، وعددها أيام اقامة فاغنر بالجزائر ، تسعة وثلاثون ، دائما مكتظة بالمصلين .

ويقول الرحالة الالماني : « **وكنت أحضر الصلاة بصورة منتظمة ، مع أني لم اكن مارقا . وكان الفضول ، تلك الرغبة الخاصة بنا نحن الالمان في مشاهدة المناظر الغامضة ، يدفعني ، كلما سمعت صوت المؤذن ، الى المسجد ، وكنت أحيانا أشارك في صلاة الجماعة الغامضة بالنسبة لي .** » ويضيف فاغنر ان المسلمين لا يمنعون احدا من الدخول الى مساجدهم ، الا ان على

الزوار ان يخلعوا احذيتهم حفاظا على طهارة المكان . وفي أيام رمضان تضاء عدة مصابيح بالجامع الكبير . ويصف فاغنر الطريقة التي تتم بها اقامة الصلاة ، ويؤم الناس فيها شيخ الاسلام ، ويعتقد انه منظر جدير بالاعتبار ، فالمسلم الفخور المعتز بنفسه ينحني امام ربه بخشوع العبد المذنب المرتعد . فالمسلمون يصطفون خلف الامام دون أن يقيموا وزنا للاصل والنسب ، فهناك الحضر والاتراك والكراغلة والعرب والقبائل والبسكريين والزنوج ، بحيث يكاد لكل ناحية من الجزائر من يمثلها . فيجلس التركي في ثيابه الفاخرة الى جانب البسكري المتسخ الثياب ، والحضري الشاحب في اغلب الاحيان يبدو بجماله الى جانب الزنجي المشوه ، وكلهم متجهون بمشاعرهم المتعبدة الى ذلك الجوهر الذي انبعثت منه الغاز الالوان والاشخاص .

والمسلمون يلفون مسبحة حول ايديهم في اثناء الصلاة ، وقد اخذ عنهم المسيحيون ، كما هو معروف ، استعمال المسبحة . وتصنع المسبحة من ثمار الوقل الخاشع ، وترى بايدي الائمة والمرابطين وشيوخ البدو . وهناك عدد من اولياء هذه البلاد الجزائرية المشهورين ، ومنهم الامير عبد القادر ، لا يكادون يتركون السبحة من ايديهم . وعندما ينتهي المسلم من صلاته ، يظل في مكانه لحظة دون حركة ، ويحني رأسه فوق صدره ، ويهز حبات مسبحة مرات أخرى ، ويتمتم بكلمات ، يودع بها المكان الطاهر . وفي فناء المسجد يغسل يديه ورجليه بعناية في عين مرمرية ، تحيط بها أشجار الفواكه ويرتدي نعله من جديد ، ويترك المسجد بنفس الوقار والخشوع . وكل فرد من هذه الطوائف المختلفة يترك نقطة الاتحاد هذه ، التي امحى عندها اختلاف الطبقات ، ويعود الى حياته اليومية وأعماله الخاصة ، فيذهب الحضرى الى بيته ، حيث تستقبله زوجته مداعبة مبتهجة ، والعربي الى باديته ، والقبائلي الى جباله . وفي طريق عودتهم لا يتورع هؤلاء المصلون الاتقياء عن سلب اخوانهم في الدين أو قتل المسيحي الذي يجدونه وحيدا . (1/75 — 78) .

احتفالات رمضان :

ويحرص المسلمون ، فيما يذكره فاغنر ، على سماع الموسيقى طيلة شهر الصيام ، ويتسلون بمشاهدة الرقصات والعروض المسرحية والهزليات

المتنوعة ، التي تذكر باعياد الكرنفال في اوروبا ، مما يجعل المرء يتساءل عما اذا لم تكن في اصلها عادة اسلامية انتقلت الى المسيحيين كما انتقل غيرها من التقاليد . ويتشدد الجزائريون في المحافظة على الصيام ، حسب ما أشـار اليه العالم الالماني ، ويستشهد على ذلك بالمثال التالي : ((**استخدمت أحد الجزائريين لاستعين به خلال بعض الرحلات التي كنت أقوم بها في داخل البلاد ، فوقعت لنا حادثة مؤلمة ، أضعنا فيها كل ما كان معنـا من مؤنة ، فقضينا أربعا وعشرين ساعة في المناطق الشرقية من سهل متيجة بدون طعام ، ووصلنا الى مدينة الجزائر مع الفجر ، فدفعت لمستخدمي البسكرى أجرته وأسرعت لتناول فطورى . وبعد حوالي ساعة وجدته جالسا في الميناء فسألته ما اذا كان قد تناول طعامه ، ولكنه أشار برأسه قائلا : ((الله أمر بالصوم)) ، وقضى يومه كله هكذا حتى المساء ، مع ان الجوع كان قد أنهكه ، وظهرت آثاره في ملامح وجهه النحيفة ، وما كان ليتناول شيئا ولو قدم لـه نظير ذلك ما قدم . وما أن سمع طلقة المدفع حتى أخرج الخبز من قلنسوته وراح يلتهمه بجشع كالمجنون .**)) (79/1)

وطعام الصائمين في الليل الكسكسي بالزيت ، ويضاف اليه اللحم المقلي والفواكه ، وبعد الطعام ينصرفون الى مشاهدة العروض الهزلية ، الـتي يشاهدها المرء في اغلب المقاهي العربية . وتشارك فيها شخصيات مـن العباد والحيوانات ، وتحتوي على اشارات وحركات مثيرة ، ومناظر فاحشة ، وسخرية مقذعة ، الى درجة أنه ليس من اللائق الحديث عنها ووصفها ها هنا . وثمة محل آخر يحظي بعدد كبير من الزوار في ليالي رمضان ، وهو المسرح الشعبي أو القرقوز ، ويقع في أقذر زاوية بدينة الجزائر . فهو عبارة عن قبو مظلم ، يحتشد فه عدد من الاهالي ، ويجلسون فوق الارض وانظارهم متجهة الى الشاشة ، حيث تظهر الاشكال السوداء الناطقة ، التي تشبه خيال الظل الصيني في اوروبا ، على قطعة من الورق مشبعة بالزيت .

ومن بين الشخصيات الناطقة شخصية القرقوز ، ويمتاز بضخامة جسمه ، ومنظره المضحك ، ، وسخريته المقذعة . وما يحدث في مسرح القرقوز يشبه الى حد كبير ما يحدث في مسرح العرائس الالماني او في مسرح جنوب اوروبا فالشخصيات تتصارع وتتضارب من البداية الى النهاية ، وقرقوز هو البطـل

وهو بدوي صرف ، يوزع اكثر الضربات ويتلقى مثلها . والحوار بالعربية تارة وبالفرنسية تارة اخرى ، لان مدير المسرح ترجمان ، ولم يكن يرى مانعا من استعمال بعض التعابير الفرنسية ، واتاحة الفرصة للجنود الفرنسيين للمشاركة في التمثيل . ولا عمل للاشكال التي تمثل هؤلاء الجنود الا العراك مع القرقوز ، وهذا كله حتى لا يشعر المشاهدون الاوروبيون بالملل . ويحرص مدير المسرح ايضا على ان تتخلل مشاهد العراك والنزال مناظر ساخرة ، الا ان هذه المناظر تبدو شنيعة وغير طبيعية ، بحيث أن كل انسان لا ينتمي الى طبقة الادنياء ، يغض نظره دون تلك المناظر الفظيعة . والحقيقة ان الحضر لا يجدون مكانا احسن من هذا ، يتعلم فيه اطفالهم ضروب السفالة وانواع الآثام . فهل يعجب الانسان بعد هذا أن يرى هذا الشعب غارقا في الفساد والجبن والذلة والعبودية ، ويرى شبابه يمتص أحط أنواع السموم التي تقضي على طلقاته وحريته الفكرية ؟ !

والحكومة الفرنسية متسامحة في مثل هذه الفضائح ، فلم تحاول حتى الآن اغلاق تلك الاماكن ، التي تنشر الفساد والانحلال . بالعكس ان اوضاع تلك الاماكن قد تحسنت منذ دخول الفرنسيين ، اذ انها لم تعد تدفع تلك الضرائب التي كانت تدفعها الى الداي ، ومن هنا فان عددها يزداد بسرعة . وتهتم فرنسا بتزويدها بجيش من الفتيات ، يفوق عددهن عدد المعمرين بثلاثة اضعاف ! (1/80 — 81) .

احتفالات العيد :

وبعد احتفلات رمضان يحتفل المسلمون بالعيد الصغير ، وهو عيد البهجة والمغفرة ، يستسلم فيه المسلم الى مسراته حتى في اوقات النهار ، فيستيقظ الناس في الصباح على انغام الموسيقى الصاخبة ، التي يعزفها السود ، وهم يرتدون أجمل الثياب ، وبايديهم الطنابير والصفائح الحديدية ، وموسقاهم ذات ايقاع همجي ، وتصاحبها حركات الفنانين السود وتمثيلهم الصامت واهتزازات اجسادهم ، بحيث يبدو كل شيء فيهم يتحرك ، الراس والفم والاذن والعين والقدم والاصابع ، وهذا في الوقت الذي يتهادى فيه الجسم ويؤدي حركاته على حدة . ومظهر هؤلاء الزنوج غريب ، يستعصي على

الوصف ، ولا يستطيع الانسان ان ينظر اليهم دون أن يضحك . وتراهم يلتفون بالاجنبي ، طالبين منه ثمنا لهذه التسلية التي قدموها له ، ويضجون بالآتهم حوله ، ويصعرون وجوههم بصورة رهيبة ، فيضطر لشراء نفسه واخراجها من دائرتهم السوداء بعدد من القطع النحاسية . وهذه الموسيقى الزنجية من العادات القديمة المتبعة في الاعياد . وكان هؤلاء انفسهم يوقظون الداى من نومه صبيحة العيد ، ويعزفون موسيقاهم في قصر القصبة مثلما يفعلون ذلك في الاماكن الاخرى ، ويتلقون عليها الهدايا ، ولا يزالون يفعلون هذا اليوم امام بيوت الاغنياء من الحضر والكراغلة .

ويرتدي الاهالي في أيام العيد الثلاثة أجمل ما لديهم من البسة ، وخاصة الاطفال الذين يرتدون في هذه الايام الثياب المطرزة بالذهب والفضة ، والسراويل المصنوعة من الصوف او القطن ، مما يجعل منظرهم في منتهى الروعة . والنساء والفتيات محجبات ، الا ان عددهن في الشوارع والميادين العامة لا يقل عن عدد الرجال . وهن يكتفين بالنظر والتسلية ، وبينما يعانق الرجال في الشوارع معارفهم ، يرش الاطفال الاروبيين بماء الورد تحية لهم . وفي باب الواد ميدان فسيح ، يقوم فيه تركي عجوز بادارة عجلة كبيرة، وفوقها عدد من الاطفال يمرحون ويضحكون . أما ابناء الاغنياء فيجلسون في عربات يقودها الزنوج أو البسكريون ، وهؤلاء الاطفال يفضلون الركوب في العربات الفرنسية ، فهي تسلية مجهولة بالنسبة لهم . وبما ان الجزائر لم تعرف الطرق الممهدة قبل سنة 1830 ، فان اصحاب العربات الفرنسية يكسبون في ايام الاعياد مبالغ كبيرة ، فعرباتهم محملة بالاطفال الصغار على الدوام . وثمن مسافة ثلاثمائة خطوة ، تقطعها العربة بسرعة ، هو سنتيم واحد،وكانت اصوات الصغار تعلو على اصوات النواقيس .

ومن المؤكد ان التحول السياسي ، الذي يتمثل في الجزائر في سيادة شعب غريب ، لم ينقص من أفراح هذا الشعب ، الا ان هذه المباهج والافراح قد فقدت الكثير من صخبها وأصالتها . ولم يكن القناصل وأتباعهم ، ولم يكن يقيم في الجزائر غيرهم ايام حكم الداي ، يجرؤن على ترك بيوتهم خلال شهر رمضان ، مثلما لم يكن يجرؤ على ذلك يهود المدينة . فقد كان الشعب يتطرف في تصرفاته ، وهو يعبر عن مباهجه ، فكان من السهل أن يؤدي كل ذلك

الى المعاكسات والاهانات ضد اصحاب المعتقدات الاخرى . وقد اتخذ العيد الآن مظهرا مرحا بصورة مطلقة . فالمسلمون انفسهم يستسلمون لبهجة العيد دونما حرج ، بحيث ان العيد لا يسبب لاحد رهبة أو خوفا . ولعلهم يشعرون في اعماقهم ، على الرغم مما هم فيه من تزمت ، بالفرق بين الحاضر والماضي فالقسم المثقف على الاقل لا يتمنى ان يحل جلادوا الداى، الذين كان منظرهم يرعب الغني والطموح على حد سواء ، محل الحراس الفرنسيين ذوي السروايل الحمراء !

كان الآباء الحضريين ينظرون الى صغارهم المرحين في ابتهاج ، ويمسحون لحيهم في رضا ، ولا يدعون مجالا لكل ما يعكر عليهم سرورهم الابوي . والنساء الحضريات لا يشاركن في الواقع في مباهج العيد بصورة ، ولكنهن يتفرجن على المشاهد البهيجة بحرية ، ووجوههن محجبة ، لا ترى منهن الا عيونهن السوداء ، التي تلتمع فرحا لدى منظر الاطفال ، وهم يلعبون ويمرحون . وقد منعن في ايام الداي حتى من هذه المسرات البريئة . اما النساء المحجبات ، اللواتي كن يظهرن آنذاك في الشارع ، فكن كلهن من البغايا العموميات (1/82 — 84)

الحفـــلات العائليـــة :

ويخلص المؤلف الى الحديث عن الحفلات العائلية ، وهي في نظره من هذا النوع الصاخب ايضا ، وقد اتيح له ان يحضر اعراس الحضر في الجزائر مرتين ، كما دعى فيما بعد لحضور حفلة عرس تركي في عنابة ، وعرس كرغلي في مستغانم ، ويصف الحفلات بانها كانت كلها متشابهة . فبعد أن يعود الرجال من عند المفتي ، يمضون بمجرد غروب الشمس ، تصاحبهم الموسيقي والفوانيس الكبيرة ، الى منزل العروس ، فتتبعهم هذه في لباس فخم ، ولكنها محجبة كالعادة برداء حريري ابيض ، الى بيت العريس . اما العرائس من الطبقة الراقية فيقطعن المسافة على ظهور البغال فيما يشبه القفص ، يحجبهن عن عيون الرجال .

وعندما تصل الى بيت العريس تقاد الى غرفة مضاءة ، تتناول فيها طعامها

مع الحاضرات من النساء ، وترقص وتتسلى ، بينما يجتمع الرجال في البهو ، ويحتفلون ويطعمون في غمرة الاغاني والهتافات .

ويحيط ببيوت المتزوجين الجدد دائما جمع غفير من الناس ، ويدخل الى الفناء عدد منهم زيادة على المدعوين ، يصعب اخراجه ! ولهذا فالفناء مملوء دائما بالناس ، الذين يتربعون فوق الارض المرمرية ويدخنون ويشربون القهوة ثم تقدم قصعة كبيرة من الطعام ، فيلتف حولها الضيوف كلهم ، وياكلون بملاعق خشبية . وبعد الطعام تقدم الاكلة الرئيسية ، وتتمثل في الخروف المشوي ، الذي يقطع ويوزع على الحاضرين . ثم تقدم الفواكه المختلفة ، وخاصة البطيخ والتمر والبرتقال ، الذي يوجد في الجزائر طوال السنة تقريبا . وفي النهاية تقدم القهوة ، ويستمر تقديمها حتى الصباح ، وذلك اثناء مشاهدة العروض الفنية . وياتي اولا الموسيقيون والمغنون ، يقودهم موسيقار الداي ، على الخياري ، في هدوء ووقاء ، ويقوم بالدور الاول في الحفلة فيحدث الحاضرين طورا ، ويغني طورا آخر ، ويروي لهم قصص الحب . اما الراقصات فهن من بنات الشارع ، وغالبا ما يريدين ثيابا فاخرة ، ولهن حظ من الجمال من جهة نظر الاهالي على الاقل . ورقص هؤلاء البغايا رتيب لاجمال فيه أصلا ، فهن يلوحن في الهواء برداء كبير شفاف أو منديل ، ويحركنه حركات متنوعة دون ان يتركن مكانهن ، وأجسادهن تهتز بشكل مثير ، فكل شيء فيهن يرتعد ، الراس والصدر والايدي والارجل . والظاهر ان الحضر يجدون لذة كبيرة في مشاهدة هذه الحركات الخليعة . اما بالنسبة للاروبي ، فهي ، على العكس من ذلك ، تضحكه أولا ، ثم تضجره وبالتالي تثير اشمئزازه . فهذه الحركات مكشوفة ، وهي صورة طبق الاصل ، تجسم اللذة دون ان يكون لها شيء من جمال ، ومن غير أن تحتوي على ذلك الدلال ، وتلك الخفة ، وأنواع الفتنة التي يحدثها الرقص الاسباني ، فينشد المشاهد الى جمال الراقصة ، وثيابها الفاخر ، وزينتها الرائعة .

والرقص مهنة رابحة ، فبعد كل رقصة تقترب الراقصة من المشاهد الجالس هناك ، وتحني راسها فوقه ، واللياقة تحتم عليه ان يلصق بماء الورد أو بلعابه قطعة نقدية فوق وجهها . وحين يمتلىء بالقطع النقدية ،

تحرك رأسها فتتساقط في منديلها . وقد اكد لي احد الجزائريين انها تتقاسم ذلك مع صاحب العروس ، وهو ما يشبه ضريبة العرس بالنسبة للمدعوين .

ويتسلى النساء في الطابق الاعلى بالطريقة نفسها ، وكثيرا ما تسمع زغرداتهن ، التي تشبه صراخا حادا ، يستمر مدة طويلة ، ويصعب تقليده . وهذه الزغردة نفسها تسمع في الحفلات والمآتم ، في السلم والحرب . ويقول المؤلف انه سمعها حتى في حفلات الختان . وحين وقفت طلائع الجيش الفرنسي سنة 1837 فوق منحدرات المنصورة الصخرية ، رحبت بها نفس الزغردة بمصاحبة صفير الرصاص !

وبالتالي تقاد العروس الى غرفتها ، فتنزع عنها ثياب العرس ، وتقدم لها صديقاتها بعض الارشادات ، تتعلق بسلوكها في وضعها الجديد . ويرافق الاقرباء العريس الى الباب ، فيعانقوه هناك ، ثم يدخل الغرفة ويرى العروس لاول مرة بدون حجاب . وبعد لحظات تتردد زغردة النساء من جديد في جوقة لا تنتهي . وتعزف الموسقى في البهو ، وتتصاعد الهتافات في الدار وفي الشارع . وهذا الصراخ الحاد يعلن ان الزواج قد تم وكل (1/84—88) .

ويتحدث المؤلف بعد هذا عن الطريقة ، التي تتم بها عقود الزواج ، فيذكر ان الشبان الحضريين يصلون الى سن البلوغ في الثالثة او الرابعة عشرة . ويتزوج ابناء الاثرياء عادة في الثامنة عشرة ، ويتزوج غيرهم حين يصبح في امكانهم أن يعيلوا امراة . فاذا سمع شاب بفتاة جميلة ، ورغب في مصاهرة اهلها ، فانه يبحث عن خاطبة لها علاقة باهلها ، تتيح لها الدخول الى بيتهم ، والعجائز لا تنطبق عليهن القوانين التي تنطبق عادة على الجنسين ، واذا كن متمسكات بالحجاب واستعماله ، فانهن يفعلن ذلك بحكم العادة فقط ، وسوفلن يعيب عليهن احد نزع الحجاب . والخاطبات يتمتعن في الجزائر بالحرية التي يتمتع بها الرجال ، فلا احد يهتم بما يفعلن .

وهكذا يختار الشاب ، الذي يرغب في الزواج سيدة من هؤلاء الخاطبات ويتخذ منها رسولا لحبه ، ويقدم لها هدية متواضعة ، ويعدها باكثر من ذلك ان هي قدمت له معلومات صادقة عن جمال الفتاة ولطفها . وتقبل الخاطبة

بطبيعة الحال ما عرض عليها ، واذا كان الشاب غنيا وذا سمعة طيبة ، فانها تسرع في الحال الى والدي الفتاة وتبوح لهما بالسر الذي عهد اليها به ذلك الشاب . فاذا ارتضياه صهرا ، فانهما يقدمان لها بعض الهدايا لكي تطرى جمال ابنتهما على اية حال ، وتتم خطبة الفتاة الشكلية على يد الخاطبة نفسها فيجتمع الوالدان ويتفقان على الصداق الذي يجب أن يدفعه الشاب للفتاة . فاذا تم ذلك ذهبا الى القاضي ، فيعد هذا عقد الزواج الشكلي ، ويحدد يوم العرس ، ويطلب القاضي ، الذي يستلم بدوره ما يستحقه من مال في سخاء ، الماء المحلي ويشربه مع الوالدين . وعقب ذلك يقرآن معه الفاتحة ، ليتم الزواج على بركة الله . والمعروف ان المسلم له الحق في أربع زوجات ، أما الاخريات فهن اماء ، الا ان الجزائر ليس فيها احد يملك حريما حقيقيا ، وهناك عدد قليل من الحضر له اكثر من زوجة . (1/88 — 89)

حفــلات الختان والولادة :

ويذكر فاغنر ايضا هذا النوع من الحفلات ، فيقول انه يشبه الحفــلات الاخرى تماما ، والوليد الجديد لا يحمل الى المسجد ، ولا يختن الاطفال الا في الرابعة ، ويدعى الرجل الذي يقوم بهذه العملية ، البشار ، وما هو برجل دين ، وأقصى ما يتسلمه من الاثرياء هدية لا تزيد عن ثمانية « بوجو » ، أما الفقراء فانه يختن اولادهم مجانا . ويختن ابناء البادية من طرف المرابط ، فالختان بالنسبة لعرب الريف حفلة دينية اكثر منها دنيوية . أما الحضر فانهم على العكس من ذلك يطعمون ويكررون نفس الحفلات التي تقام بمناسبة الاعراس .

ويروي فاغنر انه أتيح له صدفة ، وكانت تلك الصدفة غريبة ، أن يحضر في عنابة حفلة نسوية . فقد كان يسكن في مقهى فرنسية ، فاستطاع مــن غرفته أن يراقب عددا من البيوت المجاورة . وذات يوم جذبته الى النافذة زغردة النساء المتكررة ، وسمع في الوقت نفسه نغمة الطنبور ، مما اثار فضوله ولم يكن ليدع مثل هذه الفرصة ، التي تتيح له التعرف على عادات الاهالي وتقاليدهم ، ولو اقترنت بمغامرة لا تحمد عقباها ، فاجتاز عددا من السطوح الى

ان أطل على فناء الدار ، فشاهد اكثر من اربعين امراة ، كن يرتدين ثيابا نفيسة ، من بينهن فتيات جميلات ، وحضريات رائعات الطلعة .

واستطاع فاغنر ان يرى في هذه الحفلة اشكالا من الزينة ، والوانا من الجميل البديع ، وذلك دون ان يزعج حضوره فوق السطح النساء ، فقد كن يغنين ويرقصن ويقمن بنفس الحركات المثيرة المتماوجة ، ويصفها ايضا بانها كانت حركات آلية محفوظة رتيبة ليس أدنى حد من الجمال والامتاع .

الفصـــل التـــاســـع

صـــور شمسيـــة جزائريـــة

لا يكاد القارىء يفتح اليوم كتابا قديما ، يتحدث عن الجزائر في عصر من عصورها بلغة اجنبية ، حتى يجد نفسه قد انتقل اليها بالفعل ، يعيش ظروفها التاريخية المختلفة ، واوضاعها الفكرية المتباينة ، ويستعرض معالم تقاليدها وعاداتها ويشاهد مبانيها ومساجدها وأزقتها ، بل كثيرا ما يخيـــل اليه انه يسمع حركة شوارعها ، وأصوات باعتها ، وصياح دلاليها ، واحاديث مقاهيها واغاني اطفالها العراة ، ويشعر انه يحيا في اجوائها الخاصة . ذلك ان المؤلف الغربي ، الذي اتيح له ان يعيش فيها فترة من حياته ، كان حريصا كل الحرص على ذكر جميع التفاصيل والجزئيات التي لا يهتم الكثير منا اليوم ، ويرى في الحديث عنها ، في اي مناسبة كانت ، ضربا من اللغو واضاعة الوقت ، مع انها تفتح أمام الدارس مجالا كبيرا لدراسة نفسية الشعـــب والتطورات التي تطرأ عليه بين وقت وآخر ، وتساعد على تفسير بعـــض التصرفات المعينة في ظروف خاصة ، هذا بالاضافة الى انها تربط حاضرنا بماضينا ، وتكون جزءا من تكويننا الخلقي ، وشخصيتنا القومية .

وهذا المؤلف الغربي ينقل الينا حتى مشاعره نحو الجزائر فنلمح بيـــن سطوره وكلماته ، بين جمله والفاظه ، الخوف حينا ، والحقد حينا آخر . ومن شان هذا الحقد ايضا ... هذا الحقد التاريخي ان يفسر لنا بدوره مسلك بعض الدول والافراد تجاه الجزائر المعاصرة ، التي بدات تستعيد مكانتها التاريخية وتستعد للقيام بدورها في بناء حضارة الانسان . فهناك اشياء كثيرة

وتصرفات متعددة ليست جديدة ، وانما هي مواقف تاريخية كتب لها البقاء والاستمرار ، سجلها غيرنا ولم نسجلها نحن ... لم يسجلها اجدادنا .

واذا كان اغلب من تحدث عن الجزائر من المؤلفين والرحالين الغربيين ، وخاصة في الفترة التي اعقبت الاحتلال ، قد اقتصر على معالجة الجوانب المذكورة ، فان المؤلف النمساوي آدولف شترال قد تناول ، بالاضافة الى ذلك جانبا لم يتعرض اليه ، فيما اعلم ، غيره . فهو يقدم لنا في كتابه « صور شمسية جزائرية » ، الذي نشره في مدينة فيينا سنة 1842 ، قصصا وحكايات عن الجزائر . قدم لنا في جزء منه شخصيات جزائرية واجنبية ، وحلل عواطف بعضها نحو البعض الآخر ، وقد اخضع اسلوبه فيها لموجة الرومانسية التي كانت قد ظهرت قبل ذلك بسنوات ، كما صور طبيعة بعض المعمرين والجشع الذي حملهم على المجيء الى الجزائر .

وقد قسم المؤلف كتابه الى اربعة اقسام :

1 — يحتوي القسم الاول منها على القصص التالية :

1 — انتقام الحضري ، وهي قصة ملازم فرنسي ، جاء الى الجزائر في الشهر الثاني بعد الاحتلال ، وقد لعبت براسه طيوف الف ليلة وليلة ، وخيل اليه انه يستنشق هواء أجوائها ويرتاد ملاهي الرقص الشرقي ، ويعيش في نعيم ما بعده نعيم . وشاهد ذات يوم احدى نساء احمد بن حمود ، وهو من اثرياء مدينة الجزائر ، فوق سطح المنزل المجاور لنزله ، فهام بها ، واخذت هي تبادله بعض الاشارات ، ولكن سيدها علم بأمرها ، ولزمها متلبسة بجريمتها ، فاستسلمت له استسلام الحمامة لمخالب الصقر الحادة ، فمضى بها الى ضيعته قرب معسكر بير خادم ، وهناك انتقم منها في فجر احد الايام . وعند عودته ناداه احد الحراس مناداة برناردو لفرنسيسكو في مسرحية هاملت ، ولكن أحمد بن حمود لم يجب ، فاطلق عليه الحارس النار وارداه قتيلا .

2 — المعمر المخدوع . يتحدث شترال في هذه الحكاية عن معمر قدم الى الجزائر بحثا عن الثورة والهناء ، فمر في طريقه ببناية يسكنها بضعة جنود

فرضت عليهم الاقامة الجبرية ، فاقترب منهم واعرب لهم عن رغبته في الحصول على منزل يكون قريبا من الجزائر .. وبعيدا عن النار والبارود ! واذا باولئك الجنود يعرضون عليه ، دون اشارة حارسهم ، التنازل له عن تلك البناية مقابل ستين فرنكا ودلو من النبيذ . وعندئذ اجتاحت المعمر موجة من البهجة والسرور ، واهتز لهذه البداية البديعة . وحين طلب منهم ان يقدموا له ضمانا على صحة الصفقة ، أجابه احدهم : « هذا شيء غير معمول به في هذه البلاد . يكفي أن يقول المرء في ذلك : هذا البيت لي ! ونحن شهود . » وهكذا تتم الصفقة بكل سهولة ، ولكنه ما كاد يستقر بها حتى جاء بعض الضباط واخرجوه منها بالقوة .

3 ــ مغامرة خطيرة . هذه القصة تصف لحظات حرجة مرت بضابط فرنسي ومرافقه الصبائحي ، عندما كانا يقومان باحدى المهمات على طريق وهران ، حيث خرج اليهما رجال من بني عامر ، واعترضوا طريقهما ، ولكن ظهور دورية فرنسية على حين غرة حفظ عليهما حياتهما وابعد طيف الخوف وبالتالي الموت عنهما ، فاختفى رجال بني عامر كما خرجوا فجأة .

ب ــ أما القسم الثاني فيتضمن بدوره الحكايات التالية :

1 ــ الساحر . يعترف المؤلف في مقدمة هذه الحكاية انه قد استمدها من مذكرات رجل عاش في الجزائر مدة تزيد عن ثماني سنوات ، ويروي قصة عراف كرغلي ، حدث جلساءه عن نتائج حملة قسنطينة الثانية قبل القيام بها بمدة قصيرة ، ووصف مراحل معاركها ووقوع قائد الحملة عن مظهر فرسه واصابته وموته ، وتنبأ كذلك للفتاة نجمة بمستقبلها مع حبيبها الفرنسي !

2 ــ صيد الضباع في نواحي الجزائر . في هذه القصة يصف المؤلف لحظة يلتقي فيها احد الصيادين بالضبع في منطقة حسين داي ، فيكتشف ان بندقيته فارغة وان حزامه خال من الذخيرة ! واجمل ما في هذه الحكاية هو تحليله لمشاعر هذا الصياد ، حين يدرك الخطر المحدق به ، ويشعر بالحيوان يلقيه أرضا ، فيتصور القمر يدور في حلقته ، والنجوم تتراقص متعانقة في سحر غريب ، وذلك بعد ان احس بشعر الحيوان يلامس وجهه وينشر فيه البرودة والجمود .

3 ـــ حسن واسماعيل . وهي قصة العربي ، اسماعيل ، الذي ضحى بابنه حسن ، لانه تعدى على حرمته حين قتل ضيفه أحمد حقدا وغيرة . فقد كانت تعيش في خيمته فتاة تدعى عائدة ، يحبها حبه لابنته ، وكانت تبادل احمد حبا بحب ، الا ان احمد اكتشف ان مضيفه ينوي تزويجها من ابنه حسن ، ولذلك قرر ان يتركه ويرحل عنه . فاجتمع قبل رحيله بعائدة وحدثها بما عزم عليه ، فالحت عليه في البقاء ، الا أن احمد رفض ان يسيء الى مضيفه بأي شكل من الاشكال . ورآه حسن في موقفه ذاك ، فحقد عليه . ولما عزم احمد على السفر عرض عليه أن يرافقه مسافة من الطريق ، فكان ذلك آخر عهد اسماعيل بضيفه . وما أن عرف نهايته حتى صمم على استرداد كرامته التي دنسها ابنه امام القبائل الاخرى . وهذه القصة اروع ما في الكتاب على الاطلاق . وسيجد القارىء ترجمتها في نهاية هذا العرض .

4 ـــ اليهود في افريقيا . يحتوي هذا العنوان على ثلاث حكايات عن علاقات اليهود ببايات تونس ودايات الجزائر وبايات وهران . وقد ركز المؤلف في حكاياته على معاملات اليهود التجارية التي هي اساس كل علاقاتهم بما في ذلك العاطفية منها .

ج ـــ يتضمن القسم الثالث من هذا الكتاب القديم ما يلي :

1 ـــ نبذة عن تاريخ الجزائر . ويتحدث المؤلف في هذه الدراسة عن اهمية الجزائر وكبر مساحتها وحدودها ، ثم يعدد اسماء ابطالها والدور الذي لعبوه في تاريخ الجزائر القديم ، ويذكر الدول التي تعاقبت عليها خلال العصور الطويلة ، وينهي هذه النبذة بالحديث عن سنوات الاحتلال الاولى .

2 ـــ مملكة النباتات في الجزائر . تحت هذا العنوان يتحدث شترال عن طبيعة بلاد الجزائر ، ويشير في مقدمة دراسته الى انه لا تكاد يوجد في نواحي الجزائر نبته واحدة غير صالحة للاكل او للتجارة او للاستغلال في المعامل ، وأن الارض الجزائرية تتمتع بحيوية فريدة ، تمكنها من احتضان نباتات كل من اوربا وامريكا دون عناية خاصة ! ثم يذكر الاشجار المختلفة والثمار المتنوعة التي تنشر عطورها وروائحها الزكية في اتجاه اشعة الشمس الرائعة، ويؤكد ان لكل شهر براعمه وثماره وان نتاج الارض الخصيبة لا ينقطع ابدا بصورة

تامة . ان المؤلف في مقاله هذا يمجد خصوبة الجزائر وما تقده لاهليها من خير ونعمة وعطـــاء .

3 ـــ الجزائر في صورتها الحالية . يحاول شترال في هذا المقال ان يقدم صورة عن الجزائر بعد الاحتلال ، فيتحدث عن بعض الصناعات الوطنيـــة ويصفها بانها لم تتعدد بعد مرحلة الطفولة ، ثم يشير الى ما طرا على طبيعة الجزائريين من تحولات بفعل احتكاكهم بالدخيل الاجنبي ، من ذلك انه لا يوجد من يفوق الجزائري في تعاطيه للنبيذ ، فهو لا ينقطع عن تناول الخمر الا عندما يفقد الشرارة الاخيرة من وعيه ! وبعد هذا يرسم المؤلف صورة للجزائـــر ببناياتها الجديدة ، وشوارعها الحديثة وطرق مواصلاتها ، وحركتها المعمارية المتزايدة ، التي تجعل الانسان يشعر بانه يعيش في مدينة اروبية ، ومنجزاتها بعد ثماني سنوات من الاحتلال .

4 ـــ حمام حضرى . يتحدث المؤلف هنا عن تجربة دخوله الحمـــام ، فيصف داخله وجدرانه المغلفة بالمرمر ، وغرفه وزواره وعملية الاستحمام من اولها الى آخرها ، ويحلل مشاعره تجاه كل ما شاهده واختبره جسما وعقلا لاول مرة !

5 ـــ حضريات الجزائر . يتناول شترال في هذا المقال بعض مظاهر المرأة الجزائرية ، ويقدم وصفا لحياتها المنزلية ، وخروجها لحضور الحفلات الدينية كانت تقام يوم الاربعاء من كل اسبوع ، أو لزيارة قبور الاولياء ، وللثياب التي ترتديها في مثل هذه المناسبات ، ويستعرض حتى الحركات التي تصدر عنها عندما تريد أن تلفت النظر اليها أو تعرف بنفسها أو تظهر رشاقة قوامها بشكل معيـــن .

6 ـــ سهل متيجة . يعود المؤلف لتمجيد الطبيعة الجزائرية ، فيتصور سهل متيجة حزاما فاخرا تحتزم به منطقة الجزائر تارة ، ويتصوره في بعض فصول السنة بساطا اخضر تطرزه الازهار والورود تارة اخرى ، ويرى في آثار الضياع والقنوات ما وصل اليه سهل متيجة من ازدهار وعمران خلال العهود الماضية . وينفي بعد ذلك ما ذكره البعض من أن سهل متيجة كان حتى وقت غير بعيد مرعى لقطعان العرب لا غير . وبالتالي يصف الضجة التي قامت حول متيجة

بعد الاحتلال ، وذلك حين اراد كل معمر أن يكون له نصيب في خصبها وتربتها المعطـــاء !

7 ـــ قبر الرومية . يصف شترال موقع هذا الضريح ثم يروي الاسطورة التاليـــة :

قبل زمن طويل كان يعيش بين افراد قبيلة حجوط رجل سعيد يدعى يوسف بن القاسم ، وكانت امراته جميلة خيرة ، وكان ابناؤه في صحة وعافية ، يدينون له بالطاعة . وكان هو نفسه محاربا شجاعا ، ولكنه وقع ، رغـــم شجاعته اسيرا في أيدي النصارى ، فاخذوه الى بلادهم وباعوه رقيقا . وكان سيده رفيقا به ، ومع ذلك كان يوسف يشعر بشقاء كبير ، وما أن يتذكر ما فقده حتى تنهمر الدموع من عينيه . وذات مساء اشتد به الحزن بعد انتهائه من عمله فجلس تحت شجرة واخذ يناجي نفسه قائلا :

ـــ ويلاه ! من سيزرع حقلي في الوقت الذي ازرع فيه انا هنا حقل غيري ؟ وما هو مصير زوجتي واطفالي الآن ؟ هل ساحرم من رؤيتهم مرة أخرى ؟ وهل سانهي حياتي بين الغرباء ؟

وبينما هو في مناجاته هذه رأى ساحرا مقبلا نحوه . ولما اقترب منـــه قال له :

ـــ من اية قبيلة انت ، ايها العربي ؟

فاجاب يوسف :

ـــ انا حجوطي .

ـــ لابد انك تعرف ضريح قبر الرومية .

ـــ اواه ! اني لاعرفه معرفة جيدة . ان منزلي الذي تركت فيه كل ما هو عزيز علي ، يقع على بعد ساعة من ذلك الضريح .

ـــ اتريد أن تعود الى اهلك ؟

ـــ اهذا سؤال توجهه الي ؟ ولكن لم الحديث عن امر لن يتم ابدا !

ـــ ان ما سآمرك به ليس أمرا مستحـيلا . ففي امكاني أن افتــح لك طريق العودة الى وطنك ، الا أني اطلب منك في مقابل ذلك عملا ، فهل انت على استعداد للقيام به ؟

ـــ تكلم وكن على يقين من أنني سافعل كل شيء من اجل الوصول الى أسرتي . أنا على استعداد للقيام بكل ما يرضي ضميري .

ـــ كن مطمئنا بالنسبة لهذا الامر . أعرني الآن سمعك ليتضح لك ما أريده منك : ساحررك في هذه الساعة وأهيء لك سبيل الوصول الى الجزائر . ولك بعد عودتك أن تعيش بين افراد عائلتك ثلاثة أيام كاملة ، على أن تذهب في اليوم الرابع الى ضريح قبر الرومية ، وتشعل نارا صغيرة ، ثم تحرق الورقة التي سأسلمها اليك . ها انتذا ترى أن هذا من السهولة بمكان . اقسم لي اذن بانك ستفعل ما أطلبه منك وسامنحك حريتك في الحين .

ففعل ابن القاسم ما طلبه منه الساحر ، وأخذ منه ورقة تحتوي على حروف ورسوم لم يتوصل الى فهم دلالتها . واستعاد حريته في اليوم نفسه ، فقاده ولي نعمته الى مرفأ ركب منه الى الجزائر ، فلم يبق بها سوى لحظات من شدة شوقه الى رؤية أهله وسافر في الحال الى منطقة قبيلته . وفي وسع المرء ان يتصور البهجة التي عمت اسرته . وقد تقاطر اليه أصدقاؤه ليشاركوه أيضا فرحته بعودته ، فظل منزله مزدحما بالضيوف لمدة ثلاثة أيام .

وفي اليوم الرابع تذكر العهد الذي قطعه لمحرره ، فتوجه مع الفجر الى ضريح قبر الرومية ، وأشعل النار وأحرق الورقة الغريبة كما أمره الساحر . وما كادت النار تاتي على الورقة ، حتى اعترته دهشة كبيرة ، فقد برزت من شقوق الضريح آلاف القطع الذهبية والفضية ، كانها أسراب نحل أفزعها حادث فطارت على غير هدى . وبقيت هذه القطع تحوم حول الضريــح مدة ، ثم غيرت اتجاهها فجاة وسارت نحو بلاد النصارى ، وقد اتخذت شكل عمود لانهاية له . . . تماما كما تبدأ الخطاطيف أو طيور الهجرة رحلتها البعيدة

وكان ابن القاسم ينظر بالم الى كل تلك الثروات التي كانت تطير فوق راسه ثم راح يقفز محاولا أن يمسك البعض منها . وبعد أن أتعب نفسه دون فائدة

خلع برنوسه ورمى به في الجو فاستطاع بهذه الطريقة ان ينزل حوالي مائة قطعة فضية وعشرين قطعة ذهبية . وما كادت هذه القطع تلامس الارض حتى غلق الكنز ولم تتسرب بعد ذلك أية قطعة خارج الضريح .

ولم يحدث ابن القاسم احدا عن مغامرته هذه باستثناء عدد قليل من اصدقائه ومع ذلك فقد سمع الباشا بهذا وارسل العمال لهم الضريح والاستيلاء على شكل الكنز ، الا انه ما كادت تسقط ضربة المطرقة الاولى حتى ظهر شبح امرأة فوق قمة الضريح واخذ يصيح :

ـــ علولة ! علولة ! تعالي الي وساعديني ! انهم ينهبون كنوزك .
فلبى نداءها سرب من البعوض بحجم الجرذان العادية ، وخرج من البحيرة المجاورة وطارد العمال بلسعاته القوية الحادة . ومنذ ذلك الحين فشلت جميع المحاولات التي استهدفت فتح ضريح قبر الرومية . وقد ذكر الحكماء انه لن يتمكن غير النصراني من استلام الكنوز التي بقيت داخل الضريح !

د ـــ في القسم الرابع والاخير يتحدث المؤلف عن مجموعة من المدن الجزائرية ، فيذكر شيئا من تاريخ قسنطينة بعد الاحتلال ويصف موقعها وجسورها وشوارعها وما فيها من بنايات وقصور وينوه بحيوية تجارها وصناعها ، ثم يتعرض لتاريخها في العصر الروماني والعصور التي تلته بصورة مختصرة . ويذكر مثل هذا أو قريبا منه عن مدينة وهران ، وعنابة وبجاية ، ومعسكر ، وشرشال ، ومستغانم ، والقل ، ومليانة ، وندرومة ، وينهي ذلك بالحديث عن آثار تلك دمت ومعامل الاسلحة التي نقلها الامير عبد القادر اليها

وصاحب الكتاب يقدم آراءه حول الجزائر بصورة عامة ، الا انه لا ينبغي ان يفهم من هذا ان تلك الآراء صائبة دائما ، وانما هو يخطىء احيانا كما اخطأ غيره قبله أو بعده . ويرجع خطأه اما الى التاثر بالافكار الخاطئة التي كانت تشيعها الذهنية الاستعمارية في ذلك الحين او الى سطحية بعض ملاحظاته عن الجزائر ونفسية سكانها . وهذا النوع من الآراء خاضع على أية حال للمناقشة والرفض .

حســـن واسمـــاعيـــــل

كانت هناك عدة خيام قد ضربت تحت اشجار الطلح ، التي تفرز اغصانها من حين لآخر قطرات الصمغ ، فتلتمع كالزبرجد في ألق الشمس الغاربة ، وقد جلس أمام تلك الخيام خمسة أشخاص ، هم : الشيخ اسماعيل ، وهو عربي لا يزال ، رغم تقدم السن ، يحتفظ بقوته ونشاطه ، وزوجته ، وابنه حسن ، وفتاة شابة ، وغريب يرتدي الزي التركي .

متشهية ، فاهتزت الفتاة وارتعدت فرائصها كما لو ان هبة ريح السموم المحرقة الفتاة ، وهي يتيمة فقيرة ، باسرته . وبعد أن قبلت عائدة يد مربيها ، واصل الشيخ حديثه قائلا ، وقد أدار وجهه نحو الغريب :

ـــ لقد أتيح لك اكثر من مرة أن تلاحظ ، خلال المدة التي أقمتها عندنا ، مدى حبي لعائدة ، اليس كذلك ؟ اني اعتبرها ابنتي وأرجو أن ـــ

ظن حسن ان كلمات أبيه تعنيه هو لا غيره ، ولذلك القى على عائدة نظرة متشهية ، فاهتزت الفتاة وارتعدتفرائصها كما لو ان هبه ريح السمومالمحرقة قد ألهبتها . أما الغريب فاطرق مفكرا . فقد أثارت كلمات الشيخ الواضحة ونظرات حسن في نفسه مشاعر لا توصف . وعندما انتهت الجلسة اقترب من الفتاة وهمس في اذنها كلمة لم يفهمها ، ثم ابتعد وعلامات الحزن بادية عليه ، دون ان يهتم بما ارتسم على جبين حسن من مخايل الغضب والعنف .

لم يخطر بباله ، منذ أن سكن منزل هذا العربي ، أن عائدة يمكن أن تكون عروس حسن ، ولهذا اطلق العنان لحبه . وكان هو الوحيد الذي نجا من السموم التي قضت على القافلة ، فوجد عند هؤلاء الناس الطيبين كرمـــا حقيقيا وضيافة اصيلة ، وتعود على الحياة البسيطة الهنيئة الى درجة انـــه لم يفكر خلال ذلك في الانفصال عنهم . وكانت عائدة تحبه ، الا انه عرف ، في الوقت الذي أراد فيه أن يفتح قلبه للشيـــخ اسماعيل ويطلب منه يد ربيبته ان عائدة مخطوبة لشخص آخر .

وهكذا قرر ، وذلك لكيلا يحول بين الشيخ وبين تنفيذ ما عزم عليه ، أن يضحي بحبه لعائدة من أجل المحافظة على واجبات الكرم والضيافة ، وان يهجر اسرة

مضيفه الى الابد ، ولكنه أخفى ذلك عن الشيخ اسماعيل حتى لا يسيء الى كرمه وحسن ضيافته ، ولم يذكر له الحقيقة كاملة ، وانما حمله على الاعتقاد بانه سيعود اليه بمجرد ان تسمح له اعماله بذلك .

وعندما عاد جميع افراد الاسرة الى خيامهم ، ترك الغريب خيمته واتجه الى العين القريبة . كان الليل هادئا ، وكانت الحشرات تلتمع بين الاعشاب كنجوم السماء . وفي تلك اللحظة تهادى فوق المروج قد رائعـــوهاهي العروس تقف أمام احمد فيقول لها :

ــ اني احبك ، ويسعدني أن تبادليني هذا الحب ، ولكن بما أن الشيخ اسماعيل قد اختارك لتكوني زوجة لابنه ، فيجب ان تكوني زوجته ، ولا يليق بنا نحن الاثنين أن نقضي على آماله ، فهو ولي نعمتنا .

فاجابت الفتاة ، وهي تحاول ان تجد في نظرات أحمد ما يثبت دعواها :

ــ ولكن حسنا لا يحبني .

ــ تقولين انه لا يحبك ؟ الم تلاحظي نظراته المتشهية عندما اعلن اسماعيل انك خطيبة ابنه ؟

قالت :

ــ انصت ! هناك حركة بين الاغصان .

فاجاب الشاب :

ــ لعله حيوان يصغي الى حديثنا من مربضه .

ثم أضـــاف :

ــ هذا آخر لقاء لنا .

فتساءلت عائدة :

ــ ماذا تريد أن تفعل ؟

ــ أنها مشيئة الله ــ سأسافر .

ــ ما هذا الكلام ، يا أحمد ؟ اتراك نسيت ؟

ـــ لم انس انك جديرة برجل ، هو ابن ولي نعمتنا الذي اقتســـم معنـــا خيمته وخبزه . لم انس ان ناكر الجميل اسوأ من ذلك الذي لا يقرى ضيوفه ، ومع ذلك فان هذا الاخير بغيض الى الله ، فما بالك بناكر الجميل ! ـــ عائدة ، اعتبريني منذ الآن اخا لك !

احنت الفتاة المسكينة راسها ، واعترفت امام نفسها ، والدموع تنهمر من عينيها ، أن أحمد على صواب . واعتراها الفزع فجاة وقالت ، وهي تشير الى الادغال القريبة منها :

ـــ انظر ، يا احمد ! اليست هذه نظرات الفهد النارية ؟

فمسك احمد مقبض خنجره ، واتجه نحو المكان الذي اشارت اليه عائدة . وحين اقترب من الادغال سمع خطوات هارب يبتعد . ولما رجع الى عائدة قال لهـــا :

ـــ انها غزالة .

واضاف بعد لحظـــة :

ـــ ساترككم بعد يومين . واذا قلت لك ، يا عائدة ، اني ساعود بعد فترة قصيرة فلا تصدقيني . ساتركك الى الابـــد !

فاعترضت الفتاة قائلة :

ـــ ولكن كيف يمكن أن اكون زوجة لحسن ، وانا احب غيره ؟ ـــ وأنـــت نفســـك ـــ

ـــ انا ، يا عائدة ؟ اني احبك حبا صادقا ، الا أني لا أحب خطيبة حسن .ـــ فلنقطع هذا الحديث .. عودي الى خيمتك ! لقد استخرت اللـــه ، وهـــذه ارادته . ـــ الا تريدين طاعته ؟

اجابت عائـــدة :

ـــ نعم . لقد قال كلمته على لسانك .

وابتعدت عائدة بعد هذه الكلمات . اما احمد فقد بقي واقفا في مكانه وكانه مغروس في الارض ، وعيناه تتبعان عائدة الذاهبة . وعندما اختفت تحت

خيمتها خيل اليه انه راى شبحا يقترب منها . وبعد يومين ودع الغريب الاسرة وكانت عائدة عاجزة تقريبا عن اخفاء المها عندما تحدث احمد عن رجوعه القريب ، لانها كانت تعرف معنى ذلك . وفي اللحظة التي كان فيها احمد يهيء نفسه للسفر ، ظهر حسن ممتطيا صهوة جواده ، واقترب منه وقال :

ــ اسمح لي ، ايها الاخ ، بمرافقتك حتى تلك العين المعروفة

فقال الشيخ العربي :

ــ احسنت ، يا بني ! رافق ضيفنا . . حفظه الله واعاده الينا قريبا !
كانت عائدة لا تزال منتصبة كالمثال في المكان نفسه بعد ان اختفى الراكبين عن نظراتها المتطلعة بمدة طولية .

قال اسماعيل لزوجته وهو ينظر الى الفتاة مبتسما في اعجاب .

ــ سيجد حسن فيها زوجة رفيقة طيعة .

ولكن العجوز اطرقت مفكرة ولم تجب . وفي المساء عاد حسن الى البيت . مرت الايام التالية ثقيلة بطيئة . فقد ترك سفر احمد فجوة محسوسة بين افراد الاسرة التي احبته ، باستثناء حسن الذي ابدى ملاحظة دنيئة ، وهي أنه لا يستطيع أن يفهم كيف اختفت البهجة من وسط الاسرة باختفاء الغريب . غير أن الشيخ قال :

ــ ان يد الله ، التي قادت الغريب الى خيمتنا ، قد ادخلت البهجة الى وسطنا . ذلك أن وصول المسافر انما هو هبة من الله . واني لارجو ان يعود احمد قريبا ، فقد اعترف لي اكثر من مرة بانه يامل في الحصول على زوجة من بين بنات قبيلتنا .

اجاب حسن ، وهو يلقي نظرة نافذة على عائدة المرتجفة :

ــ ان العين الشريرة تفتننا وتضع الغشاوة فوق ابصارنا وتشل حركتنا كالهوة تحت اقدامنا . ان الكرم اعمى ، والله لم يضع على جبين اي انسان علامة تدل على انه خير أو شرير . الا تشبه الحية الوديعة الافعى السامة ؟
قال اسماعيل بحدة :

ــ ارجو ، يا بني ، الا تتضمن كلماتك اتهاما للغريب الذي لا يستطيع أن يسمع ولا أن يدافع عن نفسه !

ــ هل يقتضي الكرم أن يصبح الغريب ابنا لمضيفه ويغدو الابن غريبا ؟

ــ هناك ، يا بني ، افكار شريرة تطوف برأسك : انت غيران . فهل سيلقى الغريب ، عند عودته ، فيك عدوا ؟

ــ وكيف يكون الامر اذن اذا كان الغريب يحب خطيبة ابنك ؟

ــ في هذه الحالة ساترك للفتاة حرية الاختيار بين الاثنين .

ــ اذن . . . لا أعاد الله الغريب أبدا !

قال الشيخ العربي ، وهو يترك مكانه :

ــ طهر الله قلبك من الحسد الجاثم فيه !

ثم سار اسماعيل وقد قطب ما بين عينيه ، واثقل صدره الظن والغم . وفي صبيحة اليوم التالي ترك مضرب خيامه ولم يعد الا بعد يومين . كان وجهه شاحبا ، وحاجباه يتقاربان في اغلب الاحيان وبصورة متشنجة . وعندما اجتمعت الاسرة لتناول الطعام ، قال اسماعيل لابنه الشاب بهدوء :

ــ لماذا لا تحمل خنجرك في حزامك ، يا حسن ؟
فاجاب حسن في ارتباك :

ــ لا ادري ، يا أبي ! يبدو اني نسيت ان أغرزه في حزامي !

ــ إمض للبحث عنه ، يا بني ! فانا اريد ان اقارنه بخنجر آخر عثرت عليه يوم أمس .

قال حسن وهو يحاول ان يتمالك نفسه :

ــ اني ، يا ابي ، افتقد الخنجر منذ بضعة ايام . واذكر اني انحنيت مرة لاطيل الركاب ، فاضعت خنجري ولم أعثر عليه .

فارى الشيخ اسماعيل ابنه خنجرا ، اخفى شفرته عنه :

ـــ اهو هـــذا ؟

اجاب حسن في حزم :

ـــ نعم . انـــه هو .

فقال اسماعيل وهو يلصق نظرته النافذة بحسن :

ـــ انظر الى هذه الشفرة !

فتراجع حسن عندما رأى الشفرة الملطخة بالدم والصدأ ، ونهض الشيخ وهو يقول :

ـــ والآن اتبعني !

وسار الرجلان صامتين جنبا الى جنب ، وعندما اجتازا أشجار الطلح والجميز ، توقف اسماعيل فجاة وقال بصوت جليل رزين :

ـــ اين تركت الغريب ، يا حسن ؟

ـــ قرب عين الملح .

ـــ هل تعرف ما إذا كان قد حل به مكروه ؟

ـــ ومن أين لي أن أعرف ما اذا كانت نمر الصحراء قد فتكت به ؟

فصاح الشيخ بصوت غاضب وقد التمعت عيناه كالبرق :

ـــ حسن ! وهل للنمر خناجر ؟ وهل يغتال الشجاع من خلف ؟

ـــ عندما يتسلل الثعبان الى الخيمة ، فان الانسان يسحقه بدون رحمة .

ـــ حسن ! لقد قتلت ضيف ابيك .

فصاح حسن وقد فقد السيطرة على نفسه :

اجل ! لقد قتلته ! لقد قتلت الشقي الذي خدع مضيفة وكافأ جميلـــه بالخيانة .

ثم حدثه عن اللقاء الاخير الذي تم بين أحمد وعائدة . . مستنتجا كل شيء من حركاتهما واشاراتهما ، لانه لم يسمع حديثهما . كان اسماعيل يصغي اليه بانتباه ، وبعد ذلك اخذ بندقيته تحت ذراعه وحك الصوانة بابهامه ، ثم غرز طرف البندقية في الارض واتكأ عليها وقال :

ـــ حسن ! ان الضيافة واجب مقد س ، ومن اغتال ضيفه ، ولوْ كان مجرما ، حل به عقاب الله . لقد جلبت علي العار ! ــ قتلت الرجل الذي كنت تسميه « أخا » بطريقة غادرة دنيئة جبان . واذا كنت متيقنا من ذنبه وعدالة عقابه فلماذا لم تتهمه أمامنا وتهاجمه علنا ؟ لكن دعني اجبك على ذلك ! انك لم تقتله بعيدا عن خيامنا لانك تخاف ان يدنس دم رجل شرير أرضنا المضياف ، وانما قتلته لانك كنت تعرف اني اصغى الى صوت العدالة لا الى ما تمليه نزوة عمياء . لقد تركت بذرة الافكار الشريرة تنمو في وجدانك والتزمت الصمت الغادر . فبينما كنت تقدم يسراك للضيف الواثق بك ، الذي كنت تسميه « اخا » كانت يمناك تتلمس مقبض الخنجر . لقد تسللت كالكلب الحقيـــر لتقبل يد ذلك الذي كنت تريد ان تقتله ، فرافقت الغريب بدعوى أنك تريـــد ان تدافع عنه وتحميه ، ثم غرزت الخنجر بين كتفيه ، ولعله كان في تلك اللحظة يدعو لخيمتنا المضيافة باليمن والبركة ! فالذنب ذنبك اذن اذا طردتني قبيلتي وارغمتني على اللجوء الى القبائل المجـــاورة التي ستحتقرني بحق وتشير الى بالبنان . واني لاسمع الآن الاطفال يسخرون مـــن « اسماعيل المضياف » بينما الشيوخ يوجهون الي السؤال الذي وجه الى اول من اجرم فوق الارض : « ماذا فعلت باخيك ؟ » لا ينبغي ان يحدث هذا ! ــ اريد ان اسير مرفوع الراس وأن يكون في وسعي ان اعرض على ابن السبيل خيمتي . فلنحتكم الآن الى الله . وغدا ستحكم بيننا القبيلة في اجتماع افرادها جميعا . اتبعـــني !

وعندما رجع اسماعيل الى خيمته ، اعترضت طريقه زوجته باكية ملوحة بيديها ، وصاحت بصوت راعش :

ــ ماذا فعلت ، يا اسماعيل ؟

فأجاب الرجل وهو يضع بندقيته في احدى زوايا الخيمة ، ويخفي راسه في ثنايا ثيابـــه :

ــ لقد سلمت المذنب الي قاضيه وانقذت شرف قبيلتي .

ومنذ ذلك اليوم لم يظهر اثر لحسن قط ، ولعل اباه قد ابعده عنه في سورة غضبه الى الابـــد .

الفصل العاشر

كليمانس لا مبينغ

كان لا مبينغ ضابطا في جيش امارة اولدنبورغ ، ثم سافر الى اسبانيا سنة 1839 ، وبعد ستة اشهر ترك مدريد الى الجزائر حيث التحق بالفرقة الاجنبية ، وغادرها بعد سنتين وعاد الى وطنه المانيا . فوضع كتابا بعنوان « ذكريات من الجزائر » ، نشره عام 1844 بمدينة اولدنبورغ . وهو يصف في هذا الكتاب العمليات الحربية التي شارك فيها وبعض المواطنين الذين كان على اتصال بهم . وقد كتب في مذكراته بتاريخ سيبتمبر 1841 ان بيجو يحرق ويدمر ، فقد خرجت جيوشه الى سهل الشلف واستولت على قطعان واضرمت النار في القمح ، فتحول السهل كله الى بحر من نار ! (ص 2)

والمؤلف يولي علاقته بالمواطنين اهتماما اكبر ، فقد كان يقتصر على الجلوس في المقاهي العربية بالقليعة ، ويقول عن سكانها انهم عرب اصلاء ، لم يجد الطف ولا اكثر انسانية منهم حتى في الجزائر ووهران ، حيث بدا اختلاط سكانهما بالفرنسيين يقضي على بعض طبائعهم وخصالهم الحميدة . ويذكر ان اللغة الاسبانية قد احتفظت بقوتها وانتشارها الى حدما . وكان كاتب الحاكم صديقه ، ويدعى ابن يوسف ، وهو رجل مثقف ، فيما يقول المؤلف ، يروي كثيرا من الاشعار الفارسية .. ويتسم سلوكه بتواضع الانسان المفكر لا يني يتاسف لكونه لا يعرف الا القليل ! والقليعة مدينة مقدسة عند العرب لان بها ضريح عائلة عبد القادر ، والفرنسيون يحترمون هذا الضريح ، ويقال ان الامير عبد القادر نفسه قد تعهد بعدم الهجوم على هذه المدينة ونواحيها . (ص 7 — 10 —).

ويذكر لا مبينغ ان حاكم المدينة من اسرة الامير ، وهو غني جدا ويعد المثل الاعلى للرجل العربي ، لانه مخيف لاعدائه ، كريم جواد مع اصدقائه . وقد رآه شخصيا في رمضان يقوم مع ابنائه الثلاثة الكبار باطعام حوالي عشرين سائلا . وطبيعة العربي ، في نظر المؤلف ، تجمع بين صفات متناقضة، ففيها الشدة والحلم ، والقسوة والشهامة ، والجشع والكرم ، فعلى الانسان اذن الا يخضع هذه الطبيعة لمقاييس أروبية خاصة . ويؤكد بعد هذا انه لم ير عربيا واحدا يحاول التشبث بالحياة أو يبكي خوفا من الموت ! (ص 60 — 75)

ويصف الحياة في الفرقة الاجنبية فيقول : « **اننا نعيش في مجتمع الخيرات، فالجندي والشحاذ شيوعيان بالفطرة ، الا انه يبدو ان العرب لم تعجبهم هذه الشيوعية ، فقد اختفى عدد كبير من الجنود ، ثم عثر عليهم فيما بعد بالبساتين ولكن بدون رؤوس !** » ثم يعود الى الحديث عن العربي من سكان القليعة وعن حبه للشعر والموسيقى ، من ثم لا يخلو مقهى واحد من مغن وقصاص ، وفيها يوجد أكبر مغن وقصاص في شمال افريقيا ، اشتهر بصوته الجميل العذب ، بحيث أنه أطلق عليه اسم حافظ ، الذي تذكر احدى الاساطير عنه انه تبارى مع العندليب في الغناء ، فلما انتصر حافظ مات العندليب المًا وحسرة ! وكان هذا المغني الجزائري ، واسمه الصوفي ، قد فقد رجله وهو في الثالثة عشرة من عمره في معركة مع الحجوط ، ومنذ ذلك الحين انصرف الى الشعر والغناء وهو يتحدث في شعره عن فتح الاندلس وانتصار عبد الرحمن وعظمة قرطبة . وكانت عيون سامعيه تلتمع حين يرفع صوته بالغناء وتضعف أنغام المندولينة وتخفت شيئا فشيئا الى ان ينشد قصة هروب عبد الله آخر ملوك قرطبة — عندئذ تسكن المندولينة وتسقط رؤوس المستمعين فوق صدورهم !

وشارك المؤلف عرب القليعة احساسهم بالالم ، فالتفت الى ابن يوسف الذي كان جالسا الى جانبه ، واخبره بانه شاهد مواطن امجادهم ورأى قصور الملوك والحمراء وقرطبة . وما ان سمعوا ذلك حتى طلبوا منه ان يحدثهم عن الاندلس ، ولما الحوا عليه وصف لهم جمال قرطبة واعمدته الكثيرة، وحدثهم بانه رأى دماء أجدادهم هناك .. فلم يستطع الزمن محو آثاره ، وعند هذا الحد اخفوا رؤوسهم تحت برانيسهم . فقد عادت بهم افكارهم الى ذلك المجد

الذي بنوه هناك .. ثم فقدوه وأصبحوا لا يرون آثاره الا من خلال ما يشعرون به من حزن وأسى .. من خلال ذكريات تنتقل ن جيل الى آخر . (ص 20 — 25)

ويتحدث المؤلف عن المعارك التي دارت في نواحي مدينة جيجل ، فيقول ان القبائل كانت تهاجم معسكرات الجيش الفرنسي باستمرار ويلتحمون معه في معارك طاحنة في ربيعة النهار ، ثم يعودون الى اماكنهم . ولما شعر الجيش الفرنسي بعجزه عن التغلب على رجال القبائل ، والحيلولة دون تكرار تلك الهجمات ، اصدر القائد اوامره للفرقة الاجنبية بالهجوم ليلا على القرى الآمنة التي تسكنها تلك القبائل ، فخرجت للبحث عنها في الجبال ، ولما بزغ الفجر لمح الجنود موقع القرية واقتربوا منها ، فرأوا رجلا عجوزا في طريقه الى الحقل وأمامه ثوران . وعندما بصر بهم ولى هاربا ، ولكن البنادق سددت نحوه وأطاحته أرضا . وكانت الاوامر قد صدرت الى الجنود بقتل جميع الرجال فقتلوهم أمام نسائهم وأطفالهم عن آخرهم ونهبوا القرية كلها ، واخذوا الاطفال والنساء معهم ، وفروا حين ظهرت قبائل أخرى ، واضطروا الى التخلي عن الماشية التي اصطحبوها معهم . وبعد أيام جاء الرجال وافتدوا النساء والاطفال . (ص 60 — 62)

ويقول بعد ذلك : « **لقد تعلمنا القسوة من رجال القبائل الذين يدافعون عن وطنهم أكثر مما تعلموا هم منا الانسانية والمدنية ! ومن المؤسف أن الحرب، وأهم شيء فيها هي السرعة ، كما قال صديقي الجزائري ، تحمل الانسان أحيانا على أن يفقد احساسه بالآخرين .. وينسى أنهم بشر مثله يالمون ويحزنون لما يحل بهم من مصائب . (ص 63) ويروي أنه دخل مع آخرين على شيخ مرابط يتعبد ، فالتفت اليهم وقال : « نو بوينو روميس — المسيحيون ليسواطيبين !** » (ص 65) .

ويذكر لا مبينغ انه شارك في معركة ضد الامير جرت في سهل الشلف ورآه من بعيد ، ويؤكد انه لا يستطيع انكار اعجابه بهذا الرجل ، فقد كان وحده روح المعركة ولولاه لما وقفت ثلاث قبائل في وجه الفرنسيين ، ويتمنى للامير عبد القادر مصيرا آخر ، لانه اذا لم يسقط في المعركة فان اصدقاؤه

سيخونونه ، كما حدث قديما ليوغرطة ، وهو يشبه في شجاعته وصموده الى حد كبير ، ولكن الامير يفوقه في نبله وشهامته ! لقد حرم الامير على رجاله قتل الاسرى وكان يعامل المرضى معاملة انسانية كبيرة ، ويرجع ذلك ، في نظره ، الى ثقافة الامير الاروبية التي تلقاها عن والده ، وكان والده قد عاش مدة في ايطاليا واطلع على عادات أهلها وتقاليدهم ، ويضيف أن البدو يجلون الامير منتهى الاجلال لعدة اعتبارات .. منها انه خليفة عليهم . (ص68)

وينتقل المؤلف الى وصف شجاعة العربي ويقظته واستعداده الدائم للحزب والنزال ، ويختم كتابه قائلا : « **لو استطاع هؤلاء الناس أن يكونوا شعبا واحدا .. ولو أن هذه القبائل المشتتة اجتمعت على كلمة واحدة فوحدت بينها الاخوة الصادقة ، لاصبحت أمة من نوع فريد ! انها حينئذ لن تتحدى فرنسا وحدها ، وانما ستتحدى العالم كله ، الا ان بذرة الفساد فيها أن القبيلة تغير على الاخرى ، والطائفة تغالب الطائفة وتحاربها ، وذلك ما جعلها لقمة سائغة بالنسبة للفرنسيين الذين يضحون بكل شيء من اجل تقوية هذه العداوة ، فهي كسب لهم ، وقد نجحوا الآن في أن يجعلوا الجزائيين يتربصون بالجزائريين ويعلنون عليهم الحرب المبيدة ...** »

ومعلوم ان الاوضاع كانت غير هذه الاوضاع في السنوات الاولى للاحتلال، يخبرنا بهذا كارل ديكر في كتاب له عن الجزائر نشره سنة 1844 أيضا ، وذلك في حديث نقله عن ضابط الماني شارك في الحملة الفرنسية ، قال فيه : « **لقد فهمنا جيدا تعلق الجزائريين بوطنهم الذي دخلناه نحن كفاتحين .. غرباء عن دينهم غرباء عن تقاليدهم . كان علينا أن نتوقع منهم ان يكونا لنا اعداء الداء ، خاصة ، وأن الفرنسي لا يندمج في روح الاهالي ، كما فعل الانجليز في الهند ، وانما يحمل معه فرنسا وباريس اينما اتجه ! ولذلك تعذر على الفرنسيين حتى الآن أن يستقروا كمستعمرين في مكان به أهاليه . ان الفرنسي أقل جشعا من الانجليزي ، ومع ذلك فقد كان مكروها في كل بلد حط رحاله به وساد فيه نفوذه ، فقد حالت شعوب المانيا وايطاليا واسبانيا ومصر بينهم وبين ان يكون لهم حق المواطنة . ولهذا فقد استولى الفرنسيون على الجزائر ، ولكن سنوات كثيرة بقدر الايام التي تم لهم فيها الاستيلاء عليها لن تكفي للاحتفاظ بهذا البلد بطريقة أخرى غير قوة السلاح والنار !** »

وقد اعتمد ديكر في وضع كتابه هذا ، وعنوانه « الجزائر .. والحرب الجارية هناك » على بيليسي وبوكلر — موسكاو وروزيه وفاغنر ورسائل بعض الضباط الالمان الذين انضموا الى جيش الغزاة . وعلى هذا فهو لم يكد ياتي بأي شيء جديد لم يذكره هؤلاء الغربيون ، ولذلك لم اخصه ايضا بكلمة خاصة .

الفصل الحادي عشر

لودفيغ بوفري

لا نعرف عن بوفرى سوى انه كان عضوا في نادي الهجرة وشؤون المستعمرات بالمانيا ، ولعل هذا وحده يكفي لمعرفة الغرض الذي وضع من اجله كتابا بعنوان « مستقبل الجزائر في ظل السيادة الفرنسية » ونشره سنة 1855 بمدينة برلين . وقد رفعه الى نابوليون الثالث .. اعجابا بالحضارة الجديدة التي دخلت افريقيا بفضل الفكر الجبار الذي يهب من فرنسا .. وحلت محل الحضارة القديمة .. في زعمه ! ولا يهمنا حديثه عن وسائل الهجرة ولا عمن اغتنى من الاروبيين بعد وصوله الى الجزائر ، وانما يهمنا حديثه عن الامير عبد القادر وعن الظروف الاجتماعية والفنية . فهذا الرجل الذي يمجد فرنسا في اهدائه ، يقول هو نفسه عن الامير **« ان اوصاف يوغرطة كما ذكرها لنا سالوست قد تجلت مرة اخرى في شخصية الامير عبد القادر عندما اقتضت الظروف ظهوره على مسرح الاحداث ، فقد جعلت منه الحوادث التي جرت في بلاده بطلا ، ولو لاها لظل مجرد رجل بسيط أو مرابط ذي نفوذ كبير ، وهي اقصى مكانة كان يمكن أن يصل اليها تحت الحكم التركي . ان الاحداث قد جعلت منه رجل التاريخ . »** واذا اخذنا الامدادات التي كانت تتوارد على الجيش الفرنسي ، وشجاعة جنود فرنسا وتفوق جنرالاتها في التنظيم الحربي ، بعين الاعتبار ، فلا يسعنا الا ان نقول ان الامير عبد القادر قد انهزم في هذه المعركة غير المتساوية ، ولكن هزيمته كانت مشرفة ، وذلك كان جديرا بان يعترف له ببطولته الى ابعد حد ، وذلك ما فعله اخيرا نابوليون الثالث ! (ص 115 — 122)

ويضيف المؤلف ان ذكرى الامير عبد القادر ، الذي تلقى وحده الفاتحين بصدره ، بينما كان غيره ينظر الى المستقبل في ياس ، ستخلد ما بقيت اللغة العربية حية خالدة وما بقي العرب يحتلون مكانهم بين أمم الكرة الارضية فالعقل الشرقي ، الذي يمتاز بخياله وشاعريته ، يحمل الشرقيين ، وخصوصا العرب ، على تخليد اعمال ابطالهم وانتزاعها من الماضي . فلم يكن من المتوقع الا يجد رجل كعبد القادر ، تصدى بمفرده للدفاع عن دينه وحرية امته ورأي كل عربي تضحيته في سبيل قضية مقدسة ، شاعرا من بين أفراد شعب شاعرة بالفطرة — يخلد مآثره . وقد وجد هذا الشاعر بالفعل ، ونظم فيه شعرا ذاع بين الناس ، واذا كان هذا الشعر لا يبلغ طول الملاحم المعروفة فانه يكفي لتخليد ذكراه بين العرب الى الابد . (ص 122 — 124)

يقول هذا الشاعر :

الهنا . . يا علي يا وحيد ،
ما اعظمك ، يا غافر الذنوب لمن تاب
ورجع ! ما اسعد من تحفظه وترعاه !
فهل لي أن أكون جاره في يوم الدين ؟
حين يراه العدو ينسحق كالقصب العفن ،
ومن لم يره هابه .
جواده . . بعرفه الموشى يبعث الروعة في النفوس ،
ودرعه المذهب يخض القلوب خضا . . فتنطوي
رعبا . وجياد فرسانه تشبه الغزالة في سرعتها ،
وقواته النظامية سلسلة تلال مصفوفة . .
حين تنطلق يسبقها البرق المريع ،
تندفع كموج البحار في المدى البعيد
وتكتسح العدو كالسيل الجارف . . ترى
من يتلقى سيل الجبل بصدره ؟ !

الدنيا كلها تود أن تخدم سيدنا ناصر الدين ،
لقد تسمى باسم أبيــــه .
اقرت لـه بالطاعة القبائل والاجواد ،
وخضعت العرب لارادته .
انه نور الله الذي يشع بين عباده ،
فشرفوه وامدحوه واكرموه !
بسرعة البرق استولى على البلاد ،
واصبحت له طنابيره واعلامه ومدافعه —
وكان حليما . وجه رسائله الى جميع القبائل ،
فتسارع الشرق كله الى طاعته . والتحق به
سكان القرى والمدن والارياف . . جموعا غفيرة ،
فتركوا ظهور جيادهم والتفوا حوله . كانت لهم
جياد جميلة وأسلحة موشاة . قدموا له هدياهم
قائلين : لك ، ياركن الاركان ، أرضنا وسلاحنا
لا شيء يمكن ان يقارن بمجد ذلك
الذي رفع السلاح لنصرة دين رسولنا .
سيدنا الامير اوفر الناس مجدا ،
الم يملأ نفوس الظالمين رعبا ؟
انه سلطاننا . . الشريف الذي انحدر
ابوه من صلب احفادها شم . سوف
ستجدونه في يوم المعركة يجندل
كل من يتحداه ويقاومه علانية .
لقد قطع دابر الاشرار ، لذلك فهو

بمديحنا جدير . . وعندنا اثير .
كان يزورنا بقواته المنتظمة . .
وكانت القبائل قاطبة تسير في اثره ،
فدخل مدننا القديمة الشهيرة . . فسعدت
برؤيته تلمسان ومعسكر . .
اسالوا عنه جبال الونشريس المشطورة ،
حيث ارتفعت اعلامه فوق القمم المائلة ،
واسالوا بعد جبال الغرب !
فرنسا نفسها . . بلد الملوك اعترفت به ،
فخضع له سكان التل والصحراء ، وانضوت
تحت لوائه الجموع الغفيرة من عرب وقبائل .
سلطاننا يتقدمه المجد والحلم ، فاحبه
كل الذين راوه .
رجل عالم . . جميل الوجه فارس مغوار ،
يثبت في سرجه أمام عدوه . لك كل مانملك ،
لك كل خيراتنا . فمر بما تشاء ، ياسيدنا ،
فلك منا الطاعة . . كل الطاعة ! فاجاب :
اسمعوا أيها الاجواد . . وانتم أيها العرب
ويا جموع القبائل ! انا الحاج عبد القادر
بن محي الدين . فمن المهم ان تعرفوا اسمي !
ليست السيادة . . ولا العرش مطمحي ،
وليس البريق الخادع صبوتي ، وذلك ما
تصبون اليه أنتـم ،

كل رغبتي أن تنضووا اخوة تحت أمري ،

وتتخلوا عن العداوة والفوضى .

فانظروا الى بلادنا ! هاهي قد وقعت تحت

نير الكافر ، فاصبح يعيش في ارض الجهاد

والبطولة ! اليس هذا عارا علينا ؟

الشعوب والملوك تشهد بذلك ، فاذا تعاضدنا

فالله ناصرنا لا محالة .

بالجهاد سنثأر لانفسنا ولبلادنا ، وسوف

ندخل ارض الجزائر . . لنخرج الكافر منها ،

نطرده ونعيد لديننا مقامه ونقيم

أسسه من جديد . فقد وعدنا الله بالنصر ،

نحن العرب . . ابناء الرمل ، وسيكتب لاسمائنا

المجد والخلود ! فلا بد من الايمان اولا وقبل

اي شيء آخر . ومن عصى أمري فسوف يكون

القبر مأواه ! فالكفار بين ظهرانينا ، ومن ذاك

الذي يحتمل العيش بجانب العدو ؟ !

قال الرجال : لسنا ، ياسيد الاسياد ، نفكر في غير

ما تفكر فيه ، سنفديك بالمقل ،

فاقض على جذور الشر . . ونحن معك !

لسوف نجاهد في سبيل الله وتكون

نصرة الدين الحنيف لنا . اذن

فنحن ، كما ترى ، رهن أقل اشارة منك .

ليس لنا سواك . . وأنت سيدنا . فقول

قيادتنا وسربنا الى المعركة . تحت امرتك
سوف نقضي على الكافر . . وتغدو مملكته
لنا . لن نرضى ان يظل صليبه مرفوعا
فوق أرضنـــا .
انت سلطاننا . . فهيا بنا الى الجهاد . .
وسنعيد لكلمة الله عزتها وقداستها .
فقرا معهم الفاتحة وامرهم بالمعروف
ثم . . ساروا . .

ص 124 — 127)

ويؤكد المؤلف بعد هذا ان الشعر في الواقع ليس غريبا عن المواطنين ولعله يعني الشعر الشعبي ! ، ويدعى ان كل انسان منهم شاعر بالفطرة،وأشعارهم على الاغلب مرتجلة ، الا ان لهم اغاني ايضا يحفظها الابن عن الاب دون ان يلحق كلماتها أي تغيير . وكثيرا ما يسمع المسافر غناء النساء وهن يقمن بطحن الكمية اللازمة من القمح قبل كل وجبة ، ويعتقد ان مقاطع هذا النوع من الغناء الذي لا نهاية له ، تلقـــي بعض الضوء على خلق المرأة العربية ، ويرى أن القطعة التالية اكثر دلالة على ذلك . وهي :

أراني أطحن . . اطحن والرحى تدندن ،
اغني واخاطب أختي . .
ابقى في الخارج ، ففي « الكربي » الغبار ،
ساخرج اليك بعد قليل لاحدثك !
بابا عبد الله ، اراك ذاهبا الى السوق ،
فخذ زوجي معك ، فهو لم يذهب اليه منذ
مدة . ليست به حاجة الى أن يرى
ويسمع كل شيء !

وتستمر في طحنها وتغني على هذا النمط ، فياتي دور الام ثم الجارة ، ولكنها في المقطع الثالث لا ترسل زوجها الى الحقل ، وانما ترسله الى الغابة ليحتطب لها ، فهي تعرف اين تجده ! (ص 154 — 155) ويقول ان بعض اغانيهم ذات نغمة هجائية ، تكشف عن عيوب أرفع الناس قدرا لديهم وذلك بطريقة هزيلة . والاغنية التالية تنشد في الدوائر الخاصة :

السيد القائد رجل مهيب ،
يرتدي قفطانا موشى بالذهب ،
فوقه برنوسان من الحرير الخالص .
له شاشية من تونس وعمامة من استامبول !
وشاوشه يحمل عصا كبيرة ،
والسيد القائد ياخذ دوير والبايلك ،
ياخذ ثيراننا . . وياكل قمحنا
ويقضي الليل عند حريمنا . .
ليتني كنت قائدا !
سيدي الشيخ رجل كبير ، كان أبوه
في وقت ما خماسا فقيرا ، وكان هو نفسه
يرعى الماشية مقابل اربعة دويرو
في العام كله . لم يكن له سوى قميص
قصير وزوج من الاحذية وبرنوس مهلهل ،
لكنه الآن يزرع عشرين جبدة من الارض
بثيراننا وبمحراثنا وبزرعنا . . بعد أن
سرق ذلك من الحكر !
ليتني كنـــت شيخا !

الدراويش والماربطون اناس أتقياء جدا ،

حول رقابهم سبحات كبيرة ،

وفوق ظهورهم اكياس ضخمة ،

يصلون كثيرا وياكلون اكثر . . مفضلين

القمح على الشعير !

فلماذا الغلة قليلة في المخزن ؟

ولم الزبدة قليلة في القربة ؟

الولي لا يرفض اي شيء !

ليتني كنت درويشا !

(ص 156 — 157)

ويذكر بوفرى أن العربي ، في رأيه ، يزيد في عدد نسائه بقدر ما يزيد في قطيعه ، وهو يفضل عادة هذه أو تلك ، وغالبا الولود التي تثير غيرة الاخريات، فتتغنى الواحدة منهن بمشاعرها في اناشيد مرتجلة ، تتسم بالرتابة والحزن وتنطلق في ايقاع خاص . ويعتقد أن هذه الاناشيد تلقي بدورها بعض الضوء على حياة العرب العائلية ، ومن ثم يرى انه من الصائب ان يورد احداها في كتابه ، وتقول هذه الاغنية :

اني امراة هدها العجز والشقاء ،

لا اب لي ولا أم حنون !

زوجي ينفر مني ، لاني عاقر ،

يلف ظفيرتي حول قبضة يده ،

ويوقعني أرضا . . يدوسني بقدميه ،

فترتوي الارض من دمائي .

يخص بالحب نوارة ، ويهدى لها

المحارم الحريرية ، بينما يتركني انا . .
انا المسكينة عارية .
هل الذنــب ذنـــبي
ان جعل رحمي عاقرا ؟
ويلي . يا ويلي يا ويلي !
كم مرة . . يا بابا عبد الله ،
اخذتني بين ذراعيك وقبلتني ،
وأجلستني على بغلتك . . ردفتني
الى سوق ، الحد » . وهناك اشتريت
لي البصل والثوم . . او التمر والتين ؟
كان محياى ابيض محمرا
كشمس الصباح فوق جبل ايدوغ .
وكانت يداى ناعمتين
لم تتعودا على العمل الشاق ،
فقد كانت امي تقول لي ،
استريحي ، يا طفلتي الحبيبـة !
فلــن تـبقى مـعي ابــدا .
ويلي .. يا ويلـي يا ويــلي !
لقد ذهــب اللــذان احباني ،
واحببتهما أنا من كل قلبي ،
ليناما فوق تل الزيتون ،
لوّ اني نمت بجنبهما . . تغطيني ،
تستر جسدي اغصان النعنع الاخضر ،

ومن فوقها الارض الباردة . .

لكنت سعيدة . . سعيدة الى الابد .

ويلي . . يا ويلي يا ويلي !

وهذه المختارات التي قدمها المؤلف تعبر عن نفسها بنفسها ، ويعلق على هذه الامثلة القليلة بقوله : **ان الانسان حين ينظر الى الاوضاع ، التي تعيش فيها الجزائر والظروف التي تمر بها ، يظن ان سكانها ابعد الناس عن الشعر ، ولكن الواقع خلاف ذلك ، ويشير في نهاية كتابه الى ان جمع هذا النتاج الشعري ونشره بين الناس سيكون عملا له أهميته وخطورته !** وهذه الامنية التي عبر عنها الرحالة الالماني لاتزال في محلها الى يومنا هذا . وقراءة ما نظمه ذلك الشاعر الشعبي عن الامير ، والتفكير في الاحداث التاريخية التي أشار اليها ، يبين مدى ما يمكن استخراجه من مثل هذه الاشعار على الصعيدين التاريخي والاجتماعي . واني لآمل بدوري أن يتاح لي في المستقبل تقديم نصوص أخرى تزيد هذه الفترة وضوحا وجلاء .

الجزائر 1972/9/19

محتويات الكتاب

كتب أخرى للمؤلف صدرت عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

بحيـــرة الزيتـــون	(مجموعة قصص)	الجزائر	1967
التــــراب	(مسرحيـــة)	»	1968
دار الثـــلاثة	(مجموعة قصص)	»	1971
كتب وشـخصيـــات	(دراسات)	»	1971
مدخنو الحشيش (ترجمة)		»	1971
مذكرات بفايفـــر (ترجمة)		»	1974

تحت الطبـــــع

حول الانسان مسرحيات مترجمة

ثلاث سنوات في شمال عربي افريقيا (مترجم)

طبع بمطابع الشركة الوطنية
للنشر والتوزيع
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر